الجمهوريـة الجزائـريـة الديمقراطيـة الشعبيـة
وزارة التعليـم العالـي والبحـث العلمـي
المركز الجامعي - ميلة -

معهد: الآداب واللغات

ميدان: اللغة والأدب العربي

الغربة والحنين في الشعر الجزائري الحديث
مفدي زكرياء- أنموذجا -

مذكرة تخرج لنيل شهادة ليسانس نظام جديد
تخصص الأدب العربي

إعداد الطلبة:
1- زينب فعرور
2- مريم قاعد
3- نسرين سكفالي

إشراف الأستاذ:
سليم بوعجاجة

السنةالجامعية:
2011 - 2010

بسم الله الرحمن الرحيم

دعاء

اللّهم لا تجعلنا نصاب بالغرور إذا نجحنا
ولا باليأس إذا أخفقنا
وذكرنا دائما بأن الإخفاق هو التجربة
التي تسبق النجاح.
اللّهم إذا أعطيتنا نجاحا فلا تأخذ تواضعنا
وإذا أعطيتنا تواضعا
فلا تأخذ اعتزازنا بكرامتنا .

تقدير وشكر

يسعدنا أن نتقدم بجزيل الشكر والتقدير إلى من
كان لنا عونا في إنجاز هذا العمل المتواضع
إلى الأستاذ : سليم بوعجاجة الذي منحنا من وقته وجهده
الكثير ، والذي لم يبخل
علينا بنصائحه وتوجيهاته العلمية .
كما يسعدنا أيضا أن نوجه جزيل الشكر إلى جميع
أساتذة معهد الآداب واللغات ، وعلى رأسهم
الدكتور رابح الأطرش ، والأستاذ إبراهيم لقان ،
والأستاذ خليل
كما نتوجه بالشكر لجميع أعضاء المركز الجامعي ـ ميلة ـ
كما لا يفوتنا
أن نتوجه بالشكر إلى كل من أمدنا بيد العون
والمساعدة من قريب أو من
بعيد ولو بكلمة تشجيع لانجاز هذا العمل .

خطة البحث

مقدمة.

مدخـــــل:الغربة والحنين في الدراسات النفسية والأدبية.

الفصل الأول: مفهوم الغربة والحنين.
أولا: مفهوم الغربة والاغتراب.
1ـ لغة.
2ـ اصطلاحا.

الفصل الثاني: مفدي زكرياء حياته وشعره.
أولا: حياة وشخصية مفدي زكرياء.
1ـ حياة مفدي زكرياء.
2ـ شخصية مفدي زكرياء.
ثانيا: العوامل المؤثرة في تكوينه وشعره.
1ـ العوامل المؤثرة في تكوينه.
2ـ شعر مفدي زكرياء.

الفصل الثالث: ثنائية الغربة والحنين.
أولا: تجليات الغربة.
ثانيا: تجليات الحنين.

خاتمة.

مقـــــدمة

مقدمة:

يعد موضوع الغربة والحنين من بين الموضوعات التي حضرت بقوة في المتن الشعري الجزائري ، وقد شكلت ظاهرة جديرة بالملاحظة لدى شعراء كثر، بوصفها ظاهرة ولّدت في أبعادها النفسية مأساة الشعراء ، وطبعت أشعارهم بمختلف صور الاشتياق وألوان العذاب النفسي ، وقد نأت بهم الديار بعيدا عن الوطن أو ربما حرموا منه بعد أن تم عزلهم في سجنون الاحتلال .

لم يخل الشعر الجزائري ــ بما هو شعر يعبر عن مكامن النفس الإنسانية ــ من لوعات الحنين ونبرات الاغتراب كما هو الشأن بالنسبة للشعر العربي بوجه عام غير أن إيقاع ونبرة الشعر الجزائري جاء من أقبية السجون المظلمة ، ودهاليز عذابات الاحتلال ، يحمل آهات الشعراء ليصبغ الشعر الجزائري بوجه خاص بصبغة جزائرية ، كيف لا وقد كتب بعض أبياته بدماء جزائرية .

ومن بين أبرز من تجلت ظاهرة الغربة والحنين في شعرهم شاعر الثورة الجزائرية مفدي زكرياء ، الذي ترك لنا آثارا جمة حملت معها مفردات الغربة والحنين فضلا عن كونها عكست روح المقاومة والنضال والرفض لواقع الاحتلال من أجل ذلك كان هذا البحث الموسوم بـــ : **تجليات الغربة والحنين في الشعر الجزائري الحديث شعر مفدي زكريا نموذجا.**

أسباب اختيار الموضوع :

تعود أسباب اختيارنا لهذا الموضوع لعوامل ذاتية وأخرى موضوعية ؛ تتجلى العوامل الذاتية في ولعنا بشعر مفدي زكرياء بصورة جعلتنا نخصص هذا البحث لشعره ، فيما ينحصر العامل الموضوعي في أن ظاهرة الغربة والحنين في شعره (مفدي) بحاجة إلى إضاءة وبحث بعد أن تم تناوله من جوانب شتى .

الفرضية:

يقوم البحث على افتراض أن شعر مفدي زكرياء يتوافر على عنصري الغربة والحنين على نحو آخر متأثرا بالسجن وظروف الاحتلال .

الإشكالية:

تقوم إشكالية البحث على السؤال التالي :

إلى أي مدى كان شعر مفدي زكرياء متوافرا على عنصري الغربة والحنين، وما هي أوجه تجلياتهما ؟

منهجية البحث:

اتبعنا في هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي لأنه منهج يتناسب مع مستوى البحث على وجه العموم .

خطة البحث:

يقوم هذا البحث على مدخل يمثل استهلالا للموضوع مرفوقا بثلاثة فصول ، حيث كان على النحو التالي :

المدخل: وتضمن الغربة والحنين ومدلولاتهما في الدراسات النفسية والأدبية.

الفصل الأول: واشتمل على تذليل جملة من المفاهيم المتعلقة بما يتصل بموضوعي الغربة والحنين.

الفصل الثاني : وعَرَض لحياة الشاعر مفدي زكرياء وشعره .

الفصل الثالث : ودرسنا فيه ثنائية الغربة والحنين مثلما تجلتا في شعر مفدي .

الخاتمة: و خلصنا فيها إلى جملة النتائج التي توصل إليها هذا البحث المتواضع.

لقد اعترضتنا في هذا البحث جملة من المصاعب تأتي في مقدمتها قلة المراجع المتعلقة بالموضوع ، وحسبنا هذا العامل كعائق صعّب من مهمة البحث .

إن هذا البحث لا يدعي أنه قد أحاط بكل ما يتعلق بثنائية الغربة والحنين، لكن حسبنا أننا قد حاولنا والله الموفق وهو يهدي السبيل.

مدخـــــل

الغربة والحنين في الدراسات النفسية والأدبية

مدخل:

جبل الإنسان على حب وطنه والتعلق به، وكثيرا ما تغنى الشعراء بمنازلهم الأولى، ومضاربهم القديمة.

وقد قال ابن الرومي قديما:

وحبب أوطان الرجال إليهم مآرب قضاها الشباب هنالك

حتى إذا ما انقطع المرء عن مسقط رأسه ومنابت طفولته ، جاشت عينه بالبكاء ، وخفقت نفسه إلى سنيه الأولى ، حيث مرابع صباه ومواطن شبيبته ، وكان في كل مرة يتحرق شوقا وحنينا إليها وقد قال الشاعر العربي أبو تمام :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزلا في الأرض يألفه الفتى وحنيـــنه أبدا لأول منـــزل

وقال شوقي مغاليا في حبه لوطنه :

وطني لو شغلت بالخلـــــد عنـــه نازعتني إليه في الخلد نفسي

الحنين إلى الأوطان " غريزة في النفوس يتجلى ذلك في حنين الإبل إلى أوطانها و معاطنها ، وحنين الطير إلى عشه مهما أخذ و بعد به يعود إلى وكره قاطعا مئات الأميال حتى يجد قرارة نفسه في وطنه ، وكذلك يقال في بقية الحيوانات كالقطط والكلاب ، والكلاب أشد حنينا ووفاءا من بقية الحيوان ، فإذا كان هذا حنين الحيوان فكيف لا يحن الإنسان إلى أرضه ووطنه مهما عاش في حرمات وبؤس ، وفي الآية الكريمة دلالة على حب الناس في أوطانهم ولو قتلوا في سبيلها قال تعالى: " **ولو أنا كتبنا عليهم اقتلوا أنفسكم أو أخرجوا من دياركم مافعلوه إلا قليلا منهم** " (النساء الآية 66) وفي الحديث النبوي " **حب الأوطان من الإيمان** " ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحن إلى مكة وطنه، فكان إذا جاء أحد منها يسأله عنها فتغرورق عيناه بالدموع [1] "

فمن منا لا يعلم بمدى حنين رسولنا الكريم إلى وطنه مكة عندما كان مهاجرا ، وكيف كانت عيناه تدمعان كلما سأل أحدهم عن مكة ، و الصحابة كذلك رضوان الله عنهم ، ومن كان معه، فهم أيضا دائما كانوا يعانون ألم الفرقة و حرقة البعد عن الوطن الأم " وكذلك كان الصحابة يحنون إلى ديارهم ، ولزوم الأوطان غبطة ، قيل لبعض الأعراب ما الغبطة ؟ قال : الكفاية مع

1- يحي الجبوري ، الحنين والغربة في الشعر العربي ، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع ،جامعة إربد الأهلية الأردن ، ص 5 .

لزوم الأوطان ، والجلوس مع الإخوان ، قيل فما الذلة ؟ قال : التنقل في البلدان والتنحي عن الأوطان[1] "

وقد حظي موضوع الغربة والحنين في الحقل الأدبي بقسط وافر من الدراسات الأدبية ، وشغل به الشعراء و الكتاب ، ذلك أن الإنسان قد جبل على التعلق بدياره ومنازله ، وللوطن أثر عميق جدا في حياة الشاعر والأديب ، فهو يتأثر بالبعد عنه فيغير في سلوكه و تفكيره ومظهره .. فتبقى تلك التأثيرات راسخة في ذهنه و تجعله دائما يتذكره ويحن إليه.

هذا الموضوع في حياة الشعراء استولى على اهتماماتهم و تفكيرهم ،فمنهم من ذكرهم عرضا، ومنهم من خصه بنصيب وافر من شعره لقاء ما وجده من حنين ، " وإذا كان حب الوطن عند العرب أكثر وضوحا ، لأن الشعر يسجل هذه الظاهرة منذ الجاهلية ، و حتى العصر الحديث ، مع اختلاف يسير فيما بين البدوي و الحضري ، و للوطن في كل بيئة أثر واضح في سلوك الإنسان و تفكيره ومظاهره ، من حيث المظهر و العادات والمثل العليا[2] "

و الانقطاع عن الأوطان لا شك أنه يحدث أثرا بالغا في عمق الإنسان، فيبقى جرحا نازفا إلى أن يظفر بالعودة.

كان موضوع الغربة و الحنين إلى الأهل و الديار و الأوطان ، و الشوق إليها ومكابدة آلام الفراق و الغربة ، قد استرعت أذهان كثير من الكتاب و الأدباء و اهتماماتهم في التراث العربي، فمنهم من أفاض في ذلك فألف كتابا ، و منهم من ذكر ذلك بصورة عرضية ، وكلهم عرف أثر الغربة والحنين و الشوق في نفوس العرب و المسلمين على مدى العصور .

إن الوقوف عند موضوع الغربة و الحنين عند الأدباء القدامى في المعنى و المدلول ، تدفعنا للتعرف على تجليات الغربة و الحنين لدى الشعراء في القديم و كذا كتاباتهم ، دون أن ننسى في هذا الإطار الصعاليك الذين كانوا يعانون من غربة اللون والانتماء ، ورفض المجتمع للصوص والخلفاء ، ومن جانب آخر كان للظلم السياسي ، و الاقتصادي الذي يفرضه السلاطين و الولاة على القبائل أو الأحزاب التي ظهرت آثاره في شعر الشعراء ، وكثر الشكوى وقد توقفنا عند كل شاعر من الشعراء الذين كانوا يعانون من الحنين و الغربة في شعرهم مع بيان الحالات و الظروف التي كان يقاسيها كل شاعر و تحيزه عن الآخرين في كل

1 ـ المرجع السابق ، ص 5- 6.
2 ـ المرجع نفسه، ص 5.

عصر و خاصة في العصر الأموي و العباسي لا تستلزم ذلك كتابات كثيرة ، غير أننا نحاول أن نلم ما أمكن بما يتصل بالموضوع ، ومن ذلك ظاهرة المغتربين الذين نأوا عن ديارهم ما لسبب ما إلا أنهم يحنون إلى أوطانهم ، ويشكون من قسوة الاغتراب ، فعبروا عن مكنونات صدورهم بكتابة الأشعار والأقوال على الأبنية والجدران في ديار الغربة ، تعبيرا عما يعانونه من شوق وحنين وهو دفين ، وبما أن هناك تمييزا وخصوصية للغربة في التراث العربي، الذي لم يخلو من إسهامات في هذا الإطار كما هو الشأن بالنسبة لأبي حيان التوحيدي الذي كان له تميز وخصوصية في الإحساس بالغربة في مجتمعه ، وقد أدى ذلك إلى أن أحرق كتبه ، وظهرت آراؤه وأفكاره في كتابه (الإشارات الإلهية) .

كما تجلت مثيرات الحنين والغربة لدى الشعراء إلى الأمكنة ، وقد كان لهذا الأمر نصيب وافر في هذا المجال في شعرهم ، وكانت خاتمة المطاف ما جاء من الحنين والشوق إلى العراق بلد الحضارة والترف والغنى ، وما تميزت بها من محاسن ، فحن إليها الشعراء على مدى العصور منذ العصر العباسي وحتى عصرنا هذا . ومن أكثر الشعراء الذين حنوا إلى بغداد وتغنوا بجمالها "عبد المحسن الكاظمي ، وقد كان مقيما في مصر هاربا من جور الأتراك العثمانيين ، و ملاحقتهم له ومن شعره الذي يذكر فيه حنينه وشوقه إلى العراق من قصيدة طويلة يذكر فيها رحلته من العراق و أسفاره حتى حل بمصر و استقر فيها نقرأ ما يلي[1] :

جوى أودى بقلبك أم وجيت غداة حدابك الحادي الطروب

بعدت عن الديار و صرت تدعو على البعد الديار ولا مجيب

رحلت وأنـــت للعلـــاء صـــاد تحوم على الموارد أو تلوب

ولعل ما سبق أن يكون مدخلا مناسبا لمعالجة موضوع الغربة و الحنين بوجه عام ، وفي مجال الشعر على وجه خاص ، تمهيدا للوقوف على تجلياتهما في شعر مفدي زكريا .

1 ـ تحقيق حكمة الجابري ، ديوان عبد المحسن الكاظمي الأعمال الشعرية الكاملة دار الحكمة لندن 2002 م ، ط 1 ، ص 68 .

الفصل الأول

مفهوم الغربة والحنين

أولا : مفهوم الغربة والاغتراب

1ـ لغة

2ـ اصطلاحا

أولا: مفهوم الغربة والاغتراب

الغربة ظاهرة اجتماعية قديمة، عرفها الإنسان منذ أن وطئت قدماه الأرض، ومازالت تصاحبه وتلازمه بمآسيها إلى يومنا هذا، وهي ظاهرة غريبة تشكل وتتميز من إنسان إلى أخر وفق مسبباتها ومصادرها ، وكانت ظاهرة الغربة واضحة المفاهيم والاستخدامات والمصطلحات ، لكن حتى عصرنا الحديث نلحظ أنها أخذت أشكالا سلوكية وتعبيرية معقدة ، إذ أصبحت ظاهرة الغربة ، من أبرز الظواهر والمفاهيم إثارة للنقاش والجدل اللغوي وذلك راجع إلى العديد من التعريفات الحديثة ، التي تناولت هذا المفهوم الذي يتداخل لغويا مع مصطلح الاغتراب الحديث .

1- لغة :

"إن مقابل كلمة الغربة والاغتراب في اللغة الانجليزية هي Alienotion، والفرنسية ،أصلها من الكلمة اللاتينية ألياناتو Alienotion ، ويشير الاغتراب في تلك اللغات إلى حالة تحول الكائن إلى خارج ذاته أو تجاوز ذاته ، وقد استخدمت كلمة الاغتراب في العلاقات الإنسانية لتدل على الإحساس الذاتي بالغربة أو الانسلاخ سواء عن الذات أو عن الآخرين "[1]

كما نجد معنى الغربة والاغتراب بتداخلات في المعاجم الأجنبية عند الاستخدام " الحركي ألفوني Phono في اللغة الانجليزية والألمانية ، حيث المعنى يفيد التغريب أو السطو أو السلب أو عنوة .فاللفظ الألماني Frend يمتاثل مع اللفظ اللاتيني Alienus واللفظ الانجليزي الذي يعني الانتماء إلى الأخر أو التعلق به "[2]

أما الكلمة العربية " غربة" فهي تدل كما وردت في لسان العرب على معنى النوى والبعد ، فالغريب هو البعيد عن وطنه والجميع غرباء والأنثى غريبة ، والغرباء هم الأباعد ، واغترب فلان إذا تزوج إلى غير أقاربه، وفي الحديث (اغتربوا لا تضووا) ، وأغرب، أي صار غريبا ، والتغريب النفي عن البلد "[3]

1- ع .اللطيف محمد خليفة، دراسات في سيكولوجية الاغتراب ، دار الغريب ، القاهرة 2003 ، ص 23.
2 - ريتشارد شاخت ، الاغتراب ، ترجمة كامل يوسف حسب المؤسسة العربية للدراسات ، بيروت 1980 ، ط1 ، ص 67 .
3 - يحي الجبوري، الحنين والغربة في الشعر العربي، الحنين إلى الأوطان، ص 16- 17.

" فالكلمة تدل على معنيين: الأول يدل على الغربة المكانية، والثاني يدل على الغربة الاجتماعية، والغربة أو الاغتراب في المعاجم العربية تدل على النزوح عن الوطن أو البعد والانفصال عن الأخر وفي شعر المتلمس:

ألا أبلغا أفناء سعد بن مالك ******* رسالة من قد صار في الغرب جانبه [1]

ولقد اهتمت الكثير من المعاجم اللغوية والأدبية عند العرب وغيرهم بالاغتراب ، حيث لا يكاد لا يخلو أي معجم لغوي أو أدبي ظهر قديما أو حديثا من هذا اللفظ ، ومن ذلك ما ورد في معجم الرائد حيث تحيل كلمة " اغتراب إلى مادة (غ ر ب) وتعني هجرة ، واغترب اغترابا (غرب) ، ونزح عن الوطن ، هاجر ، وبعد ، وتزوج امرأة غريبة " [2]

وفي قاموس المنجد ورد تعريف الاغتراب على النحو التالي " اغترب: هاجر، تغرب ، ترك وطنه ، رحل عن وطن ، ارتحل عنه، نزح : اغترب بعض القرويين ، أحس بالغربة: جعله الحنين إلى وطنه يغترب ، ذهب ناحية المغرب ، أصبح غريبا ، أي شعر باضطراب ذهني مؤقت أو دائم يجعله غريبا عن ذاته أو عن المجتمع ، و استغرب :وجد أوعد غريبا: استغرب تصرفات صديقه "استغرب في الضحك: أغرب فيه "[3]

ومما تقدم نخلص إلى أن معنى الغربة من الناحية اللفظية في المعاجم العربية تعني القهر والنفي والتشريد وفي المعاجم الأجنبية تفيد التغريب والسطو والسلب ،وهذه المعاني قريبة في معناها من بعضها البعض على وجه التقريب وقد لازمت الإنسان منذ أول الخلق إلى يوم الناس هذا .

كما تعني الغربة، التواري والاختفاء عن الناظرين " غربت الوحش في مغاربها أي غابت في مكانسها "[4]أيضا تأتي الغربة في مواطن أخرى بمعنى " الشؤم والشذوذ أو تحمل بعض الصفات النوعية لبعض المخلوقات التي كان يتطير منها الإنسان خاصة في الجاهلية"[5] ومن كثرة " تشاؤمهم بالغراب اشتقوا اسمه من الغربة والاغتراب والتغريب والغريب.[6]

1- المرجع نفسه
2- جبران مسعود ، معجم الرائد ألف بائي ، دار العلم للملايين مؤسسة ثقافية للتأليف و الترجمة، ص 114.
3- المنجد في اللغة العربي ، دار المشرق بيروت ط 2 ، 2001 ،ص 104.
4- الزمخشري ، أساس البلاغة ، الجزء 2 ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ب ت ، ص 159.
5- الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر ، كتاب الحيوان ، الجزء الأول شرح و تحقيق يحي الشامي ، منشورات مكتبة الهلال ، بيروت ، ط 3 سنة 1990 ،ص 516.
6- المرجع نفسه، ص 518

و قد وضع أبو فرج الأصفهاني كتابا في هذا الشأن تتبع فيه ظاهرة الغربة من الناحية اللغوية ، سماه (أدب الغرباء) يقول عنه " جمعت في هذا الكتاب ما وقع إلي وعرفته وسمعت به وشاهدته من أخبار ما قيل شعرا في غربة ونطق به كربة " [1]

و قد جاء في قاموس العلوم السلوكية : عرف ولمان سنة 1989م الاغتراب بأنه " يعني تدمير وانهيار العلاقات الوثيقة وتمزق مشاعر الانتماء للجماعة الكبيرة ، كما هو تعميق الفجوة بين الأجيال أو زيادة الهوة الفاصلة بين الجماعات الاجتماعية عن بعضها البعض " وأوضح هاري لامب" في قاموس المعارف السيكولوجية " أن الاغتراب يدل على حالة أو عملية يكون فيها شيء ما مفقودا أو غريبا عن الشخص الذي يمتلكه أصلا، فمفهوم ماركس للعامل المغترب يشير إلى اغتراب العامل عن إنتاجه في العلاقات الرأسمالية للإنتاج " [2]

يتبين لنا من خلال تناولنا لظاهرة الاغتراب Alienation تنوع استعمال المصطلح وتعدد معانيه وغموضه إلى درجة تكاد تنتفي معها قيمته العلمية ، فكثير من الباحثين الميدانيين قد استثمروا هذا المصطلح بمعنى " انعدام السلطة والانخلاع والانفصام عن الذات ، و (الأنوميا) Anomil ،[3] والاستياء أو التذمر والعداء ، والعزلة وانعدام المغزى في واقع الحياة والإحباط Alienatio زد على ذلك فالاغترابAlienation " يعني حالة انفصال واستلاب وهو إحساس الإنسان بأنه ليس في بيته وموطنه ومكانه "

وفي الطب يعني الاغتراب الاضطراب العقلي الذي يجعل الإنسان غريبا عن ذاته ومجتمعه. أما في الفلسفة فيعني غربة الإنسان عن جوهره وابتعاده عن المقام الذي ينبغي أن يكون فيه، أو عدم التوافق بين الماهية والجود"[4]

وهكذا نصل إلى أن الغربة في معناها اللغوي تعني الابتعاد والتنحي عن الناس ، وفي معناها الديني الترفع عن موبقات الدنيا ، وفي المعنى الاجتماعي عدم التلاؤم بين الذات المغتربة وبين عادات المجتمع وتقاليده ، وفي المعنى السياسي الرفض لمجموعة من القوانين الجبرية التي تحكم الوطن وأحيانا التصدي لها والثورة عليها .

1- أبو الفرج الأصفهاني ، أدب الغرباء ، تحقيق دار صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديدة ، بيروت ،1972 ، ص 23.
2- د اللطيف محمد خليفة ، دراسات في سيكولوجية الاغتراب ، ص 12-13
3- ريتشارد شاحنت الاغتراب ، ص 67.
4- د مصطفى حسيب المعجم الفلسفي ، دار أسامة للنشر و التوزيع ، ط 1 ، 2009 ، ص 75.

2- اصطلاحا

أــ الغربة الدينية:

تعد ظاهرة الغربة والاغتراب عند الكائن الحي قديمة قدم الكائن الإنساني الذي ارتبطت به، فقد عرفها وعانى من ويلاتها أبو البشرية آدم (عليه السلام) وذاق مرارتها قبل وبعد نزوله الأرض، فكانت المأساة وبداية البدايات.

إنها غربة الإنسان الأول الذي ظلم نفسه، ونسي أوامر ربه فهوى، فترك الجنة بائسا مغتربا، وهبط الأرض جارا وراءه فراقها، وقد جاء إلى دنيا مليئة بالمتاعب والمآسي والأحزان.قال تعالى : <<وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كان فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين >>-سورة البقرة :35-36

وقد جاء في الأثر أن الرسول (ص) قال: « بدأ الإسلام غريبا وسيعود غربيا كما بدأ فطوبى للغرباء "

أ/ بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ قيل : ومن الغرباء يا رسول الله ؟قال : الذين يصلحون إذا فسد الناس "

ب/ بدأ الإسلام غريبا وسيعود غربيا كما بدأ ،فطوبى للغرباء ، قالوا : يا رسول الله ومن الغرباء ؟ قال : الذين يزيدون خيرا وإيمانا وتقوى إذا نقص الناس من ذلك .

ج/ بدأ الإسلام غربيا وسيعود غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء ، قالوا: يا رسول الله ومن الغرباء ؟ قال : ناس صالحون قليل في ناس كثير ، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم[1]يتضح لنا أن الغرباء فئة قليلة من أهل الورع والتقوى استجابت لرسول الله ، و ابتعدت بنفسها عن الشبهات حين افتتن المسلمون بهاتين الفتنتين .

وعلى وجه العموم فإن مصطلح الاغتراب " شديد العمق و ضارب الجذور إلى فجر البشرية جمعاء ، إذ يعود إلى تلك اللحظة المتعالية التي غربت فيها الجنة بنعيمها السرمدي عن آدم عليه السلام ، و نزل الأرض مغتربا عنها ، و عن المعية الإلهية التي كان يحظى بها قبل

1- محمد علي بيوض ، الأحاديث الصحيحة ، جمع و إعداد الشيخ زكريا عميرات ، دار الكتب العلمية ، ط/2 ، 2002 ، ص 120.

عصيان أمره ، فتلك هي بحق و صدق أولى مشاعر الاغتراب " [1] فالإنسان كائن اجتماعي بطبعه يستحيل أن يعيش بغير ما علاقة مع الآخر ، و لهذا شاءت الإرادة الإلهية أن تخلق لأبي البشرية – آدم عليه السلام . زوجة ، ليقيم كل منهم علاقة مع الأخر علاقة بالموضوع تدرأ عنها مشاعر الاغتراب .

وهكذا شاءت القدرة الإلهية أن تجعل حقيقة الوجود الإنساني وجودا مغتربا بالقدرة الإلهية قبل الضرورة الفلسفية والنفسية فالغربة إذن بالمعنى الإسلامي غربة واغتراب عن الحياة ومظاهرها الاجتماعية الزائلة ، فالغرباء هم الذين جاهدوا النفس وتصدوا لمغرياتها

ب/ الغربة (عند الغرب)

أما مصطلح الغربة في الآداب الغربية فيعني " التعبير عن حالة تهدف إلى نقلة روحية أو هجرة نفسية من الواقع الذي يحياه الشاعر أو الكاتب إلى آفاق أخرى يتخذها بيئة يستلهمها أو موطنا يستوحيه " [2]

ففقد عرفت هذه الحالة عند كتاب الغرب منذ أن شهدت أوروبا مع بدايات الثورة الصناعية والحروب النابوليونية اضطرابات وأزمات زلزلت النفوس وأقلقتها ، هاته الأزمة ولدت لدى عديد الكتاب فراغا نفسيا اضطرهم إلى الهروب من واقعهم إلى عالم الشوق بسحره وإيحائه ، ومن أبرز من عانوا هذه الحالة النفسية الشاعر الألماني الكبير غوتة الذي يقول في قصيدته الهجرة : " الشمال والغرب والجنوب ، أقطارها تتناثر بددا ، وعروشها وممالكها تنهار ،فهاجروا منها إلى الشرق الطهور " [3] ومن الذين عانوا أيضا من الإحساس بالاغتراب ، الشاعر بيار لوبي الذي عاش فترة زمنية في الشرق ، " وقضى فترة في مدينة اسطنبول ، وخلال هذه المدة كتب كتابه الشهير رحلة إلى الشرق ." [4]

وهناك قسطنطين كفافي الشاعر اليوناني " الذي هجر بلاده وأقام في الإسكندرية سنين عديدة حيث نظم أجمل قصائده التي ترجمت إلى معظم اللغات والأوروبية . وفي الأدب الانجليزي قصائد عديدة فيها هذا الحنين إلى الاغتراب من أشهرها قصيدة والتردي لامير والتي عنوانها " بلاد العرب "[5]

1- عبد اللطيف محمد خليفة / مقياس الاغتراب، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة.2006،ص 5
2- ناصر الحاني، المصطلح في الأدب الغربي، منشورات دار المكتبة العصرية، صيدا . بيروت، ص 197.
3- المرجع نفسه، ص 197.
4- ينظر المرجع نفسه، 198.
5 - المرجع السابق، ص 197.

كما ورد ذكر مفهوم الاغتراب في الكتابات الفلسفية واللاهوتية القديمة ، وعند كثير من فلاسفة الإغريق منهم " سقراط" ، وتظهر فكرة الاغتراب أيضا " في سفر التكوين genesis في الدراما الإنسانية المتعلقة بخلق وسقوط الإنسان ، وانفصاله المتمثل في قصة الإنسان والثمرة المحرمة والخروج من جنة عدن " .[1]

ولضخامة حجم ما كتب عن هذا الموضوع فإن " هناك أسماء عديدة لمعت باعتبارها تمثل الباحثين الذين تميزوا في بلورة هذا المفهوم وأعطوه ما يتمتع به من أهمية علمية ، ولقد كان لجان جاك رسو السبق في استخدام تعبير الاغتراب في ثقافة الغرب "[2]عندما رأى في تولي بعض النواب تمثيل الشعب أكذوبة كبرى ، لأن هذا الشعب لا يمارس سيادته بنفسه ، ويبدأ في الانعزال داخل وطنه ، ويشعر بالريبة . ولذلك أكد روسو أن الهيئة النيابية يمكن أن تكون أداة للحكم ، لكنها لا يمكن أن تكون أداة للتعبير عن الإرادة العامة ، وقد قال روسو في العقد الاجتماعي " إن النواب لا يمثلون الشعب ولا يمكن أن يمثلوه ، والسيادة لا يمكن أن تمارس بالإنابة ، فهي إما أن تمارس بالذات أو لا تمارس أصلا ، و ليس هناك طريق وسط ".[3]

و مع مواكبة الإحساس بالاغتراب نتيجة للتطور الحضاري رأى الفيلسوف الألماني هيغل " أن جذور هذا الإحساس قد ترسخت عندما انفصل الإنسان عن الطبيعة نتيجة لظروف العمل و الإنتاج التي تعقدت بمرور الزمن. " [4]

كما يعتقد " أن العالم الذي يعيش فيه الإنسان هو إلى حد كبير من ابتكار أو اختراع الإنسان نفسه، و أن النظم السياسية و الحضارية و الاجتماعية تمثل الجوهر الاجتماعي الذي تمخض عنه هذا الدور الإنساني "[5]

إذن "فالاغتراب عنده يمثل حقيقة تستمد جذورها من وجود الإنسان في العالم ،و يلاحظ أن هيجل يستعمل مصطلح " الاغتراب Enfrendung بصورة مزدوجة ، فهو في بعض معالجاته يستعمله في سياق الانفصال Séparation و في مواقع أخرى من بحوثه يعطيه معنى التخلي أو التنازل Religushment " [6]

1- ريتشارد شاخت ، الاغتراب، ص 79.
2- نبيل راغب ، مفهوم الاغتراب في الأدب .الفيصل . العدد 96، ص 45.
3المرجع نفسه، ص 45.
4 - المرجع نفسه، ص 46 .
5- ريتشارد شاخت ، الاغتراب ، ص 120.
6 - المرجع نفسه، ص 68.

و فكرة الانفصال تعيد علاقة متحللة بين الفرد و أعضاء مجتمعه ، و يؤدي هذا الاستعمال إلى مفهوم الانفصال عن النفس أو الاغتراب الذاتي الناشئ من تفاوت بين ظروف الفرد الحقيقية و طبيعته الجوهرية ، الأمر الذي يقود إلى الشعور بالاغتراب الذاتي .

كما يتحدث هيجل عن " اغتراب العمل بجانبيه الإيجابي و السلبي ، فهو يرى أن الإنسان يتغلب على الاغتراب بين العالم الموضوعي ، و العالم الذاتي عن طريق العمل ، و يحول الطبيعة إلى وسط مناسب لنموه الذاتي ، إذ إن العمل يشكل موضوعات العالم الخارجي ، بحيث تصبح و كأنها جزء من الذات الإنسانية ، هذا فضلا عن أن الإنسان يستطيع بفضل العمل أن يقضي على وجوده الذري الفردي ليتحول إلى وجود كلي ." [1]

و يعد ماركس من رواد البحث الهادف لتحليل مفهوم" الاغتراب الذي منحه طابعا سوسيولوجيا ، بعد أن كان مفهوما ميتافيزيقيا ولاهوتيا .....وقد برز اهتمام ماركس بهذا المفهوم بصورة خاصة و قوية في مؤلفه (مسودات اقتصادية و فلسفية).

(Cconomic and philosophical manusscript) المنشورة في عام 1844"[2]

و ربط مفهوم " الاغتراب من زاوية الأشياء التي يتم إنتاجها و يتساءل كيف يستطيع العامل أن يقف في علاقة غريبة أو مغتربةlienated relationship إلى الناتج الذي يصنعه إذا لم يكن قد عزل نفسه عن عملية النتاج نفسها "[3]

ومن هنا توصل ماركس إلى أن كل عمل هو بالضرورة عمل مغترب لأن الإنسان سيكون محكوما عليه دائما بأن ينفصل عن نتائج عمله ، كما كشفت المخطوطات الاقتصادية والفلسفية لعام 1844 لماركس أن الاغتراب كما يقول " فروم " في كتابه (مفهوم ماركس عن الإنسان) يعني بالنسبة لماركس " أن الإنسان لا يستطيع أن يحقق ذاته كنشاط خلاق في العالم . بل إن العالم –الطبيعة والآخرين وهو نفسه –تصبح مغتربة alienبالنسبة إليه، أنها تعلوه وتقف ضده كموضوعات غريبة ، على الرغم من أنها تكون من خلقه " .[4]

ويميز جون شار بين أربعة أشكال من الاغتراب عند ماركس :

---

1 - ماركيوز (هربرت) ، العقل و الثورة ، هيجل و نشأة النظرية الاجتماعية ، ترجمة د . فؤاد زكريا ، الهيئة المصرية العامة للتأليف و النشر 1970 ، ص 52.

2- ريتشاردشاخت ، الاغتراب، ص 124.

3- المرجع نفسه، ص 125.

4- .. حسن محمد حسن حماد ، الاغتراب عند إريك فروم ، المؤسسة الجامعية لدراسات و النشر و التوزيع.بيروت ، ط 1، 1415 هـ .1995 م ، ص 59.

1-اغتراب العامل عن ناتج عمله .

2-اغتراب العامل عن عمله .

3-اغتراب العامل عن نفسه .

4-اغتراب العامل عن الآخرين .[1]

وهكذا فإن الاغتراب عن الآخرين الذي يتحدث ماركس عنه يتعين أن يفهم باعتباره يتضمن غيابا شاملا للإحساس في الصحة وتقويما للآخرين باعتبار أنهم ليست لهم أهمية ايجابية تتجاوز أهميتهم كوسائل للغايات الشخصية .

ومن هنا فإن الإنسان الأناني الذي يغترب عن الآخرين لدى ماركس مماثل للفرد المتمحور حول خصوصيته عن هيغل والذي تتمثل علاقته بالبنية الاجتماعية في الاغتراب ولعل الاختلاف بينهما يرجع لأسباب أهمها أنهما كتبا عبر مراحل مختلفة للصناعة .

ج/ الاغتراب عند العرب :

فيما يخص الاغتراب ومفاهيمه عند العرب نجد البعض يرى أنهم " لم يعرفوا معنى الاغتراب إلا بعد اتصالهم بالحضارة الغربية ، ولكن الحقيقة أن المفكرين العرب أول من أدرك مأساة الاغتراب وذلك قبل روسو بقرون عدة " [2] ، فقد صور أبو حيان التوحيدي هذه الغربة أبلغ تصوير عندما قال : " إن أغرب الغرباء من صار غريبا في وطنه ، وأبعد الغرباء من كان بعيدا في محل قربة ، والغريب إذا ذكر الحق هجر ، وإذا دعا إلى الحق زجر ، الغريب من إذا أسند كذب وإذا تظاهر عذب ، والغريب من إذا قال لم يسمعوا قوله وإذا رأوه لم يدوروا حوله" .[3]

ثم يلتمس الأسباب من خلال تساؤلات يطرحها وكأنه يعدد ملامح هذه المأساة الإنسانية على مر العصور حيث يقول " إلى متى نقول بأفواهنا ما ليس في قلوبنا ؟ إلى متى ندعي الصدق والكذب شعارنا ودثارنا ؟ إلى متى نستظل بشجرة تقلص عنا ظلها ؟ إلى متى نبتلع السموم ونحن نظن أن الشفاء فيها " .[4]

1- المرجع نفسه ، ص 59.

2- د. نبيل راغب ، مفهوم الاغتراب في الأدب : الفيصل العدد 96 ، ص 45.

3- د. عمر بوقرورة ، الغربة و الحنين في الشعر الجزائري الحديث 1945-1962، منشورات جامعية باتنة ،ص 17.

4- الاغتراب في الأدب ،ص 45.

ومن بين الذين أعطوا معنى للاغتراب أيضا " أحمد أبو زيد " حيث يعرفه بأنه " انسلاخ عن المجتمع والعزلة والانعزال عن التلاؤم والإخفاق في التكيف مع الأوضاع السائدة في المجتمع واللامبالاة.وعدم الشعور بالانتماء ، بل وأيضا انعدام الشعور بمغزى الحياة ".[1]

وخلاصة القول أن الوجود الإنساني وجود مغترب بالضرورة الإلهية فقد عرف الاغتراب منذ آدم عليه السلام بعد نزوله من الجنة إلى الأرض، فضلا عن هذا فإن ميلاد كل طفل من رحم الأم يعتبر بمثابة البذرة الأولى للاغتراب.

ثانيا: مفهوم الحنين

1 لغة:

كان موضوع الحنين إلى الأهل والديار ، والشوق إلى الأوطان ومكابدة آلام الفراق و الغربة قد استرعت أذهان كثير من الكتاب والأدباء واهتماماتهم في التراث العربي ، فمنهم من أفاض في ذلك فألف كتابا ، ومنهم من أوجز فكتب رسالة ، " وقد جاءت أقوال كثيرة وحكم غزيرة في الحنين إلى الأوطان ، وقد مهد الجاحظ لرسالة الحنين إلى الأوطان بمنتجات من أقوال الحكماء والأدباء من العرب والعجم في حب الأوطان والتعلق بها والولاء لها من ذلك مختاراته " [2]

كان يقال :" أرض الرجل ضئره ، وداره مهده ، والغريب النائي عن بلده المتنحي عن أهله ، وقال أخر : الكريم يحن إلى جنابة ، كما يحن الأسد إلى غابة.

وقال آخر : إذا كان الطائر يحن إلى أوكاره ، فالإنسان أحق بالحنين إلى أوطانه

وقالت الحكماء : الحنين من رقة القلب ، ورقة القلب من الرعاية ، والرعاية من الرحمة ، والرحمة من كرم الفطرة، وكرم الفطرة من طهارة الرشدة وطهارة الرشدة من كرم المحتد " .[3]

ومما يؤكد حب الأوطان قوله تعالى حين ذكر الديار يخبر عن مواقعها من قلوب عباده فقال : "**وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا** " .[4]

وقال عمر رضي الله عنه: عمر الله البلدان بحب الأوطان.

1- عبد اللطيف محمد خليفة، مقياس الاغتراب ، ص 9.

2- د.يحي الجبوري / الحنين و الغربة في الشعر العربي ، الحنين إلى الأوطان . نقلا عن رسالة الحنين إلى الأوطان / رسائل الجاحظ 385/2 – 392 ، ص 12.

3- المرجع نفسه، ص 12-113.

4- سورة البقرة: 264.

كما اهتمت الكثير من المعاجم اللغوية والأدبية –عند العرب وغيرهم بالحنين – ولا يكاد أي معجم لغوي أو أدبي ظهر قديما أو حديثا يخلو من لفظ الحنين ، ويعود السبب في ذلك إلى تعدد مواقف الأدباء أو الشعراء من هذه الظاهرة ، وسوف نقدم بعض دلالات لفظ الحنين كما أوردتها بعض المعاجم العربية القديمة فقد جاء في لسان العرب بأن الحنين هو : "الشديد البكاء والطرب ، وقيل : هو صوت الطرب كان ذلك عن حزن أو فرح " [1].

كما أورد ابن منظور عدة مسميات وصفات للحنان بقوله: " والحنان الرحمة والحنان البركة، والحنان الهيبة والحنان الوقار"[2]

أما في معجم الرائد فقد أورد في تعريفه للحنين مادة: " حن يحن حنينا أي اشتاق إليه: صوت طربا أو حزنا. وحنت القوس، صوتت عند انطلاق السهم، والناقة: صوتت شوقا إلى ولدها"[3]

وفي قاموس المحيط عرف الحنين كما يلي: " الحنين: الشوق وشدة البكاء، والطرب، أو صوت الطرب عن حزن أو فرح " [4]

وفي جمهرة اللغة الحنين : " من حن ، يحن حنينا ، إذا اشتاق وحنت الناقة إذا نزعت إلى وطنها أو ولدها ، وكذلك البعيد إلى وطنه ، وسمع النبي صلى الله عليه وسلم – بلالا ينشدك.

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بواد وحولي أذخر وجليل[5]

2 اصطلاحا:

تعد الغربة بمثابة المخاض الذي يولّد الحنين في حياة الأفراد داخل المجتمعات ، وبخاصة تلك الفئة التي تستطيع نقل ما بداخلها إلى الآخرين ، << فإذا كانت الغربة تعني الشقاء والضياع والألم ، فان الحنين عكسها يعني حياة السرور والبهجة والفرح ،لأنه يجسد لحظة أمل يعيشها الشاعر في ساعة من ليل أو نهار ، وإذا كانت الغربة تعني البعد والنوى فان الحنين يعني

1- د. خالد رشيد القاضي، لسان العرب لإبن منظور ، دار صبح ايديسوفت ، ص 346.
2- د .عمر بوقرورة ، الغربة و الحنين في الشعر الجزائري الحديث .1945 .1962، ص 19.
3- جبران مسعود ، معجم الرائد ألفاني في اللغة و الإعلام ، دار العلم الملايين ، ص . ب 1085 بيروت . لبنان ، ط3، 2005 ص 360.
4 - الفيروز أبادى ، قاموس المحيط ، ج4 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1980 م، ص 213.
5- ت. أبي بكر بن الجن بن دريد الأزري ، جمهرة اللغة العربية ، الجزء 1، ص 255.

القرب والعودة ، تفصل بينهما لحظة زمانية معينة يسبقها الشعور الطاغي بالحنين إلى الوطن ، والحنين عاطفة سامية أودعها الله في الإنسان منذ الأزل وهي إحساس وشوق لولاها لفقد الإنسان أمله ونكص على نفسه ".[1]

وللحنين صور عديدة على مر العصور ، إذ إن ملامحه بدأت تتضح منذ الجاهلية وتتحدد عند بعض الشعراء ، فلم تقتصر على ذكر الديار والأطلال بل صارت تجلي ملامح الأرض وحدودها ومرابعها مصحوبة بذكر الشوق والحنين إليها وإلى أيام الحب والخير ، ويكثر في شعرهم الحنين إلى الديار ، وكثيرا ما يشرك الشاعر ناقته في هذا الشوق والحنين . يقول امرؤ القيس وهو في طريقه الى بلاد الروم :

سما لك شوق بعدما كان أقصرا وحلت سليمى بطن قو فقرعرا

كنانية بانت وفي الصدر ودها مجاورة غسان والحي يعمـــرا

ثم يقول :

تذكرت أهلي الصالحين وقد أتت على خملى خوص الركاب وأوجزا

فلما بدت حوران في الآل دونها نظرت فلم تنظر بعينيك منظـــــرا [2]

فالحنين إذن كما تبين لنا تحرق بشوق، والحنين قديم في شعرنا العربي كم ذكرنا ذلك سابقا – منذ العصر الجاهلي – ثم جاء الإسلام فخرج العرب من جزيرتهم في سبيل الله فبكوا ديارهم ونعوا غربتهم وأنفسهم.

ومن صور الحنين ما أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنه كان محبا لوطنه مكة كثير الحنين إليها بكل معنى الكلمة " فإذا ذكرت أمامه اغرورقت عيناه بالدموع شوقا و حنينا ، وكان يكره خروجه من مكة مضطرا ويذكرها محبا يقول في خروجه من مكة مهاجرا : "والله إنك لخير أرض الله إلى الله ، وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت [3].

1- الغربة و الحنين في الشعر الجزائري الحديث 1945. 1962، ص 18.
2- ديوان امرؤ القيس، دار صادر ، بيروت، لبنان، 2007، ص 56. 62.
3- الحنين و الغربة في الشعر العربي، ص 11.

وكان إذا قدم أحد من مكة إلى المدينة سأله رسول الله (ص) عن مكة موطن ومرتع صباه وكله شوق وحنين ، قال الغزولي: " روي أن أبان قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فقال له : يا أبان ، كيف تركت مكة ؟ قال : تركتهم وقد حيدوا ، وتركت الأذخر وقد أغرق، وتركت الثمام وقد خاض ، فاغرورقت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان شوق النبي (ص) وحنينه إلى مكة شديدا حتى إنه إذا حدث عنها يغلبه الشوق فيسأل المتحدث أن يكف ، ففي رواية قدوم أصيل الغفاري من مكة وكان النبي (ص) يسأله : (يا أصيل كيف عهدت مكة ؟ قال : والله عهدتها قد أخصب جانبها ، وابيضت بطحاؤها ، وأغدق أ ذخرها ، وأسلت ثمامها ، وأمست سلمها فقال النبي (ص) : حسبك يا أصيل لا تحزنا ".[1]

أما إذا أتينا إلى العصر العباسي ونظرنا فيه نجد أن الشعر الحديث قد قل وذلك للاستقرار واتساع المدن وانتشار الحضارة واختلاط الشعوب فكانت بغداد ملتقى الثقافات والحياة ، وأصبحت مدينة بعيدة عن البداوة مصدرا للحنين ، إلا أن هذا لا ينفي وجود أصوات تحسس بالحنين عن الهجرة أو الفراق أو هربا من جور السلاطين ومن هذه الأصوات :

صوت علية بنت المهدي –ت 210 –أخت هارون الرشيد، وقد صحبها الرشيد إلى الري، فتشعر بالغربة وتحن إلى بغداد.فلما صارت بالمرج عملت شعرا، وصاغت فيه في طريقة الرمل وعتبة به، والشعر هو :[2]

ومغترب بالمرج يبكي لشجـــــوه وقد غاب عنه المسعدون على الحـــــب

إذا ما أتاه الركب من نحو أرضه تنشق سيتشفي برائحة الركـــــــــــب

كما كان صوت الحميم يهيج الشعراء فيعانون ألام الغربة ، ويبكون هوى وحنينا وشوقا إلى الأوطان والأحباب ، قال عمر بن الحليس :

ألا يا حمام الأيك الفك حاضر وغصنك مياء ففيم تنوح

أفق لا تنح من غير شئ فإنني بكيت زمانا والفؤاد صحيح

ولوعا فشطت غربة دار زينب فها أنا أبكي والفؤاد قريح[3]

1- المرجع نفسه ص 12.
2- المرجع السابق ص 107.
شاعر جاهلي أدرك الإسلام ، و الشعر و الشعراء ص 257.
3- المرجع نفسه 108.

وكان أبو تمام (231) كثير الترحال والتنقل طلبا للعطايا ممن يمدحهم من الخلفاء والولاة في مشارق الدولة ومغاربها " الا أنه كان كثير الحنين الى أهله وأحبابه .فحب الوطن يجري في النفس مجرى الدم في العروق يقول :

ما اليوم أول توديع ولا الثاني البين أكثر من شوقي وأحزانـــي
دع الفراق فان الدهر ساعده فصار أملك من روحي بجثماني
خليفة الخضر من يربع على وطن في بلدة فظهور العيش أوطانـــي
بالشام أهلي وبغداد الهوى وأنا بالرقتين وبالفسطاط إخوانـــــي [1]

وحين نتقدم إلى العصر العثماني نجد الشعراء يتغنون ببغداد وجمالها ويحنون إلى مرابعها ، ويتفكرون تراثها العريق الخالد على مر الزمان ، فهذا الشيخ عبد الرحمان زين الدين السويدي (ت 1200 هـــ) يحن إلى بغداد ويتشوق إلى مسقط رأسه يقول :

لولاك يا بلدة (الزوراء) لولاك ما أحدق القلب من شجو شجواك
سقى أديم الثرى منك الحيا وحبت سحب الكرائم في التكريم محياك
واخضر ربعك من دون الربيع ولا زالت زهورك في صيف ومشتاك[2]

وفي العصر الحديث تغنى الشعراء ببغداد وحب بغداد ومرابعها الجميلة، وأنهارها وبساتينها، وحن أكثر الشعراء الذين حنوا إلى بغداد وتغنوا بجمالها عبد المحسن الكاظمي " ومن شعره الذي يذكر فيه حنينه وشوقه إلى العراق قصيدته الطويلة التي يذكر فيها رحلته من العراق وأسفاره حتى حل بمصر واستقر فيها ومطلع القصيدة:

جوى أودى بقلبك أم وحبيـــــب غداة حدابك الحادي الطروب
بعدت عن الديار وصرت تدعو على البعد الديار ولا مجيب
رحلت وأنت للعلياء صـــــــاد تحوم على الموارد أو تلوب

ويعاتب نفسه على غربته وهو يبكي ، ويعبر عن حنينه إلى الوطن وما في الوطن :

وفي مصر أراك وأنت لاه وقلبك في العراق جوى يذوب
فكم والام تنحب ثم تبكي ولا يجدي البكاء ولا النحيب
وتشرب ماء جفنك وهو ملح ووردك بالحمى عذب شروب[3]

1- ديوان أبي تمام ، شرح الخطيب التبريزي .156 -158 ط دار الكتاب العربي ، بيروت ، ص 12
2- الحنين و الغربة في الشعر العربي، ص 217.
3- الحنين و الاغتراب في الأدب العربي، ص 221.

ومن الشعراء الذين تغنوا أيضا بجمال بغداد وأصالتها وحضارتها سليم الزركلي يقول :

أحقا ترى بغداد أم أنت حالم و" بغداد" يا فلي الهوى والمعالم

معالم وأمجاد ودنيا حضارة أضاء بها دهر العلا والمحارم[1]

ونختم بعده المختارات من الحب والحنين إلى بغداد بأبيات في التغني بجمالها وكرم أهلها ، لم نقف على اسم قائلها :

فدى لك يا بغداد كل قبيلـــــــــة من الأرض (ألا ؟) خطتي وديارِيا

فقد طفت في شرق البلاد وغربها وسيرت رحلي بينها وركابيـــــــــا[2]

أر فيها مثل بغداد منـــــــــزلا ولم أر فيها مثل دجلة واديـــــــــا

ولا مثل أهليها أرق شمائـــــــلا وأعذب ألفاظا وأحلى معانيهـــــــا

وبعد هذا ليس كل ما قيل في الحنين فهناك أشعار كثيرة وكثيرة جدا قيلت في شرق الأرض وغربها شوقا إلى وطن أو ذكرى حبيب مما علق بالنفس من آثار الماضي أو رغبة في ملاقاة الأهل.

1- المرجع نفسه، ص 241.

2- علي الطنطاوي ، بغداد ن مشاهدات و ذكريات ، ط2 ، دار المنارة جدة 1990، ص 30.

الفصل الثاني

مفدي زكرياء حياته وشعره

أولا: حياة وشخصية مفدي زكرياء

1ـ حياة مفدي زكرياء

2ـ شخصية مفدي زكرياء

ثانيا: العوامل المؤثرة في تكوينه وشعره

1ـ العوامل المؤثرة في تكوينه

2ـ شعر مفدي زكرياء

لقد عانت الجزائر كثيرا من التحرشات الخارجية ومن كيد الغزاة الذين احتلوها طمعا في استنزاف خيراتها واستعباد سكانها الأحرار، وباختصار كان هدفهم ضم البلاد إليهم لتصير جزءا من الإمبراطوريات التي كانوا يحلمون ببنائها.

ولكن دماء الشهداء في سبيل الوطن،وحبر العلماء مشرفة للجميع لها الدور الكبير في تخليص الجزائر ومنحها الاستقلال،وقد كان من بينهم مفدي زكريا.

مفدي زكريا هو من خيرة أبناء الجزائر، وصفوة المخلصين لها، عقد العزم أن يخوض معركة التحرير لا بالرصاص بل بالقلم الجريء والكلمة الثائرة الشجاعة المتقدة حماسة، وقام بأداء رسالته خير أداء، " فشارك بذلك في شق طريق التحرير والعزة والكرامة ، هو شاعر الثورة الجزائرية الفذ الثائر بطبعه ، الذي لم يكتف بالمشاركة في إذكاء روح الثورة بقلمه السيال ، وشعره المتقد ، بل دفع الكثير من أيامه في سجون الاستعمار، وداخل زنزاناتها، وكتب فيها كثيرا من الأناشيد الوطنية الرائعة الخالدة ، التي استغنى فيها أحيانا عن الحبر ليكتب بالدم....

لقد أبدع فأجاد إذ جاءت أشعاره حية نابضة، تثير كوامن الوجدان، وتحرك سواكن الأشجان، قبل أن تجيء وقائع وأحداث ومواقف يتأمل فيها العقل، وينظر مدى رجحانها فـــــي الميزان، فجسد بذلك مقولة أرسطو "الشعر أكثر تعبيرا عن الحقيقة من التاريخ"

هو رجل خلد الثورة، وخلد الجزائر، وخلد نفسه ، واستطاع بقوة الحق أن يسجل اسمه مضيئـــا على صفحات الجزائر، بما منح لها من فيض عطائه، وصدق عواطفه ونضاله، إنه ولا فخر الشاعر الثائر بطبعه شاعر الوطن مفدي زكريا...."[1]

1- سليمة كبير ، مفدي زكرياء شاعر الثورة الجزائرية ، المكتبة الخضراء للطباعة والنشر للتوزيع ، الجزائر،ص6- 7.

أولا:حياة وشخصية مفدي زكريا

1ــ حياة مفدي زكريا:

مما لا ريب فيه أن مفدي زكريا هو النموذج الحي للمثقف الحقيقي، الذي جمع بين صفات العالم ذي الباع الطويل في شتى فنون المعرفة ، والمناضل السياسي" فهو شاعر الثورة الجزائرية مفدي زكريا بن سليمان من مواليد جمادى الأول سنة1325هجرية الموافق لأفريل سنة 1908م ببلدة بني يزقن-غرداية-" [1]

فهو ابن الجنوب الجزائري المعروف بطبيعته الخلابة وبسماحة أخلاق أهله وكرمهم ، ينحدر نسبه " من أسرة متواضعة في العلم والجاه، تعود جذورها إلى الرستميين مؤسسي الدولة الرستمية بتيهرت." [2]

لقد تلقى شاعرنا تعليمه الأول بالكتّاب في مسقط رأسه، وهناك حفظ القرآن الكريم وقسطا محترما من المعارف والمبادئ الإسلامية على طريقة أهل زمانه ، وقد " لاحظ فيه أساتذته ذكاء ونجابة ، وقد أطلق عليه أستاذه الحطاب بوشناق لقب (مفدي) " [3] ولأن والده كان يمارس التجارة في مدينة عنابة فقد انتقل الشاعر إلى هناك وهو في السابعة من عمره ، حيث التحق بالمدرسة الابتدائية ، غير أن دراسته لم تنتظم في هذه المرحلة لأنه كان يتردد بين عنابة وبين مسقط رأسه " واستمرت حاله على ذلك النحو إلى أن تخلى والده عن تجارته وارتأى حوالي 1922م أن يبعث بابنه إلى تونس حيث التحق بمدرسة السلام القرآنية ، ثم انتقل إلى الخلدونية فيما بعد ذلك لتحول بعدها إلى جامع الزيتونة، و به جلس إلى أساتذة كبار و كتبا في الاختصاص تتعلق بالنحو والبلاغة و الأصول ، وكان يتردد في هذه الأثناء على مدرسة الترجمة العليا لحضور مسامرات الأديب الأستاذ العربي الكبادي . " [4]

1 ـ أحمد حمدي ،تاريخ الصحافة العربية ،دار هوما ،الجزائر 2003م، ص11
2 ـ سليمة كبير ،مفدي زكريا شاعر الثورة الجزائرية ،ص8
4 ـ مقران فصيح،البناء اللغوي شعر السجون عند مفدي زكريا وأحمد الصافي النجفي،مؤسسة بونة للبحث والدراسات ،الجزائر 2008،ط1، ص21
4ـ محمد ناصر ، مفدي زكريا شاعر النضال والثورة ، نشر جمعية التراث ، غرداية الجزائر 1989 م ،ط 2 ، ص 8 .

هذا بالنسبة لحياته الدراسية . أما عن حياته الزوجية ، فقد تزوج زكريا " حوالـــــي سنة 1926م وخلف ولدا وابنتين وتخير لهم أسماء لها دلالات ثورية واضحة ؛ فالابن سماه "صلاح سليمان"،والبنتان:"عائشة استقلال" ، و"صالحة فداء ". [1]

هذه الروح لدى مفدي كانت عائقا في صفوف المستعمر، وهذا ما جعله يعرف السجن مرات عديدة، فيدخل هذا ويخرج من ذاك لأي سبب من الأسباب ، لعل أهمها كونه شاعر الثورة عن حق . وهذا بيت له يخاطب فيه السجن فيقول:

يا سجن، أنت؟ لا أخشاك تعرفني من يحذق البحر، لا يحدق به الغرق[2]

وقد كان سجن شاعرنا أكثر جبروتا وعنفا من غيره من السجناء ، وبالنسبة للتهمة الملصقة إليه فهي دائما :التعريض بالحكومة الفرنسية والتحريض- في شعره - على الثورة المسلحة، وقد سجن الشاعر على مراحل مما جعل السجن يحضر بقوة في شعره ومن ذلك قوله في سجن بربروس :

وفي حرم الصحراء أهلي وجيرتي وربعي وخلالي وأكبادي الحرى

ذكرتهم والسجن لـــــف ظلامـــــه لواعج ألف فارق الأهل مضطرا

كما سجن بعدئذ أربع مرات متقطعة دامت خمس سنوات مجتمعة وتزامنت هذه المراحل والثورة التحريرية الكبرى، وتكاد هذه المرة في السجن تساوي مدة الثورة، وقد أرخ الشاعـــــر لهذه المراحل من خلال شعر السجون في" اللهب المقدس"وهي مفصلة:

- في نوفمبر 1937م إلى1939م في سجن بربروس.
- في أفر يل 1955م في سجن بربروس.
- في جويلية 1956م في سجن بربروس.
- في فيفري 1957م في سجن البرواقية وبربروس.
- في نوفمبر 1957م إلى مارس 1959م في سجن البرواقية . [3]

1 ـ مقران فصيح ، البناء اللغوي لشعر السجون عند مفدي زكرياء وأحمد الصافي النجفي، ص 24.
2 ـ مفدي زكريا شاعر الثورة الجزائرية،اللهب المقدس،موفم للنشر والتوزيع- الجزائر 2000م،ط 4، ص 21
3 ـ يحيى الشيخ صالح،شعر الثورة عند مفدي زكريا،دار البعث ،قسنطينة –الجزائر- 1987م،ط1، ص 48

وخلاصة ما مر به من محنة في سجنه هذا الشعر الكثير ومعظمه من ديوان اللهب المقدس "وآخر قصيدة له (أنا ثائر) " كتب في هامشها أنه فر من السجن متجها إلى المغرب الأقصى ليستقر ويكون مديرا لمدرسة ثانوية....وبقي يتردد بين المغرب وتونس وموطنه الجزائر ، غير أنه لم يهدأ له بال ولم تقر له عين في الجزائر المستقلة المتحررة، وقبيل سنة 1977م رحل إلى تونس بعد أداء فريضة الحج. " [1]

وبما أنه عاش أغلبية حياته في تونس فقد توفي فيها " إثر سكتة قلبية يوم 3رمضان 1326هـ الموافق لـ17أوت 1977م. " [2]

واختلفت تونس و المغرب على دفن الشاعر، إلا أن الدولة الجزائرية أبت إلا أن تدفن الشاعر في مسقط رأسه (بني يزقن) حتى ينام في أحضان التربة الطيبة التي كان دائما يبحث عن حريتها ، وهكذا عاش مفدي زكريا مغتربا ومات مغتربا.

2- شخصية مفـــدي زكرياء:

كانت لدى شاعرنا شخصية فذة ، متعددة المواهب ، مفعمة بالنضال الصلب ، والقيم الوطنية العظيمة، فإلى جانب كونه مناضلا ثائرا ، وصحفيا بارزا ، وباحثا متبصرا ، وأديـــــــبا متميزا ، وزعيم سياسيا ، بل إنه من مؤسسي أحد أحزاب الحركة الوطنية ، الذي صـــــرخ بأعلـــى الأصوات مطالبا بحق الاستقلال ولو بأغلى الأثمان، ذلكم هو"حزب الشعب الجزائري"

أ/ مفـــدي زكرياء المناضل:

تكاد شخصية مفدي النضالية وحنكته السياسية أن تكون مجهولة لدى ،أغلب الشباب، رغم أنه أحد مؤسسي حزب الشعب الجزائري، ولا نبالغ إذا قلنا أن كثيرا من مفردات الخطاب الإيديولوجي الجزائري كانت من صلب أفكاره ، " فقد عرف السجن كمناضل لأول مـــــرة عندما حل حزب الشعب الجزائري، حيث ألقي القبض عليه رفقة مصالي الحاج ، ولكن أطلق سراحه سنة 1939م ، ثم ألقي عليه القبض مرة ثانية سنة 1940م ، وزج به في ظلمات السجن

1 - المرجع نفسه ، ص 52.
2 - عمر بن قتيبة ، في الأدب الجزائري الحديث ، ص 70.

إثر مجازر 8 ماي 1945م ، وعندما تقدم للترشح للمجلس الجزائري باسم حركة انتصار الحريات الديمقراطية كان ضحية تزوير مفضوحة " [1]

انضم إلى (جبهة التحرير الوطني) " بعد تأسيسها بأيام قلائل ليكتب بدمه بعض أشعاره في غياهب سجن بربروس الرهيب وبالضبط يوم25 أفريل 1955م في الزنزانة رقم 99 ، وبمجرد أن أطلق سراحه فر إلى المغرب الأقصى ليلتحق بصفوف الثورة ليساهم بنشاطاته النضالية المختلفة في التعريف بنضال الشعب الجزائري وحقوقه في الحرية والاستقلال." [2] سواء بقلمه أو بجهده ، فقد سخر قلمه لقضايا النضال والثورة ، ليبرز كمناضل ثائر يعبر عن ذلك بسلوكه وأدبه.

ب/ **مفـــدي زكرياء الصحـــفي**:

لا شك أن مفدي زكريا يعتبر من أوائل المؤسسين للصحافة الوطنية ، أي تلك الصحافة التي تتميز عن صحافة الأهالي ، وعن صحافة الجمعيات، كونها تحمل مشعل الدفاع عن الوطـــن ، و تحث على توحيد الصفوف لتحريره من قبضة المستعمر، وينضوي أغلبها تحت لواء حزب الشعب الجزائري.

أول خطوة لمفدي زكريا في عالم الصحافة كانت مبادرته إلى جانب رفيقه الشاعر رمضان حمود عندما أسسا جمعية الوفاق الأدبية التي أصدرت صحيفتها في الفترة ما بين 1925م- 1930م،في تونس، وحين عودته إلى الجزائر أسس جمعية مماثلة ، وأصـــدر لها صحيفة (الحياة) التي صدرت منها ثلاثة أعداد فقط سنة 1933م ، وفي هذه الفترة انـــضم مفدي إلى حزب (نجم شمال إفريقيا) ، الذي رفع شعار الوطنية والتحرر التام من ربقة المستعمر، وقـــد بدأ نضاله المبكر في صفوف جمعية الطلبة المسلمين في شمال إفريقيا التابعة لنجم شمال إفريقيا، وبعد حله من طرف القوات الاستعمارية تأسس من جديد تحت اسم (حزب الشعب الجزائري) " وقد كان مفدي من ضمن مؤسسيه البارزين ،ومن موقعه ذلك أسس صحيـــفة (الشعب) باللغة العربية، لكن السلطات الاستعمارية كانت له بالمرصاد إذ سرعان ما

1- أحمد حمدي ،تاريخ الصحافة العربية في الجزائر،مؤسسة مفدي زكرياء،الجزائر، ص13.
2- المرجع نفسه، ص14.

أوقفت الجريدة وزجت بمفدي مع قادة الحزب في غياهب السجون ، ورغم انشغالاته الوطنية العديـــدة هذه، فقد ظل مراسلا وفيا لعدد معتبر من الصحف والمجلات التونسية بأسماء مستعارة مـــــثل (الفتى الوطني) و (أبو فراس) كما كتب لبعض الصحف الجزائرية السرية مثل (الوطن) و (العمل الجزائر). "[1]

كمل تميزت كتابات مفدي زكريا بطابعها الثوري،وحماسها الكبير،ولغتها الراقية والمباشرة،عندما تكون موجهة للجمهور الجزائري،وطافحة بالتهكم اللاذع والسخـــرية عـــندما تكون موجهة لقوى البطش الاستعماري، وهذا مقطع من جريدة (الحياة) "...إن جريدتنا علمية أدبية اقتصادية أخلاقية جامعة، أسست لتعمل على هدم كل ما شادته أيـــدي الجهل والتفريط والكسل، وعلى إزالة كل ما يحول بين مسلمي هذه البلاد وبين رقـــيها العلمي والأدبي والاقتصادي،وهي ليست حبسا على فرد أو أفراد معينين،أو متقيدة بحزب من الأحزاب،إنما هي ملك مشاع بين جميع الذين يحملون فكرتنا ويسعون مثلنا فيما يحيي ما اندثر من مجد غابر." [2]

بإضافة إلى كتابات زكريا في هذه الفترة المقال الصحفي والتعليق دون إغفال بقية الأجناس الصحفية الأخرى.

ولم يكن نشاط مفدي الصحفي محصورا في الصحافة المكتوبة ،بل كانت له تجربة متميزة في الصحافة المسموعة،حيث أعد جملة من البرامج الإذاعية الهامة مثل برنامجه "عن الأدب الجزائري"،وكذلك برنامجه عن "تاريخ الصحافة العربية في الجزائر."

من خلال تصفح هذا الأخير يتبين لنا مفهوم مفدي لوظائف ومهام الصحافة ودورها الفعال في المجتمع،قد لخصنا في قوله المتصدر لهذه المقدمة وهو" الصحافة في كل شعب ترجيع للأصداء المختلفة التي تتجاوب في شتى ميادينها،ومرآة صقيلة تنعكس فيها الأحداث السياسية والاجتماعية التي تضطرب بها آفاق البلاد في مختلف مراحل نموها و انبعاثها " [3]

1 ـ المرجع السابق ، ص 14- 16

2- يحي الشيخ صالح،شعر الثورة عند مفدي زكريا، ص43.

3- أحمد حمدي النجفي ، تاريخ الصحافة العربية ي الجزائر، ص 14 - 16 .

وقد أدرك مناورات الاستعمار،وحرص على بناء صحافة استعمارية ناطقة باللغة العربية،قد عبر بقوله:" إنشاء صحافة عربية تخدم ركاب الاستعمار،وتشيد بمآثر فرنسا،وتسبح بحمدها قصد تركيز الاستعمار، وتعزيز الشعب الجزائري الذي ما انفك يقاوم المحتل ويثور ضد نفوذه في البلاد."[1]

هذا هو نشاط شاعرنا الصحفي الغني بمقالاته وكتاباته الذي أسهم بحق في إنارة درب الشعب الجزائري، والرد على المقالات والمنشورات المعادية.

ج/ مفدي زكرياء الأديب:

إن شخصية مفدي الأديب،تتضح في أسلوبه من خلال شجاعته التعبيرية الكبيرة،وقدرته العالية في صياغة وكتابة المقال الأدبي،أو من خلال محاوراته القليلة لكتابة القصة القصيرة ولاشك أن عبارته النثرية تظل مفعمة بالخيال الشعري،ذي العبارة الواضحة والإيقاع، والبلاغة الناذرة التي تؤكد عبقريته.

زد على ذلك كانت تراود شاعرنا أمنيتان في حياته هما:

أولا: " أن يجمع شعره الذي قاله منذ بداية رحلته الشعرية في العشرينيات إلى سنة 1954م .

ثانيا:أن يكتب مذكرات حياته،خاصة السياسية والنضالية منها،منذ التحاقه بحزب نجم شمال إفريقيا في الثلاثينات."[2]

لكن من المؤسف أن مفدي لم يكتب له تحقيق أي أمنية من هاتين الأمنيتين.

وعن آثاره نجد أن نتاج الشاعر يتلخص فيما يلي:

1- ديوان اللهب المقدس، طبع ثلاث طبعات، الأولى سنة 1961م، والثانية سنة 1973م، و الثالثة سنة 1983م.

2- تحت ظلال الزيتون،طبع سنة 1965م،بمطبعة الرسمية بتونس.

3- إلياذة الجزائر،طبعت سنة 1972م.

1- المرجع نفسه، ص 16.

2- يحي الشيخ صالح،شعر الثورة عند مفدي زكريا ، ص 49

4- من وحي الأطلس،طبع بالمغرب الأقصى سنة1976م."[1]

وقد أعلن سنة 1972معن ميلاد مشروع تلفزيوني باسم "الخالدون"يتحدث عن عبقريات مغربية عبر التاريخ،وإلياذة لتونس وإلياذة للمغرب،وطبعت الإلياذتين الثلاث في الجزائر،تونس،المغرب،في ديوان واحد بعنوان إلياذة المغرب العربي الكبير.

د/مفـــدي زكرياء الشاعر:

من خلال المواهب المتعددة لدى مفدي زكريا تبرز شخصية الشاعر الذي يجسد بكل جدارة مهمة المثقف الشهم،وتفانيه في خدمة قضيته،لكن في الفترة التي بدأ ت موهبة مفدي تظهر كان الشعر الجزائري يعيش مرحلة انحطاط وعزلة تامة عن الجمهور،نتيجة الاستبداد الاستعماري وسياسة التجهيل،ومنع اللغة العربية وآدابها،من هنا كان دور زكريا، إلى جانب محمد آل الخليفة ومحمد الأمين العمودي،واضحا في النهوض بالشعر الجزائري من سباته " ففي سنة1927م صدرت أول مختارات شعرية جزائرية بعنوان "شعراء الجزائر في العصر الحديث"لمحمد الهادي السنوسي، التي تعتبر أول الغيث الذي سقى التربة العطشى،وكان حضور زكريا في هذه المجموعة بارزا،وأثر ذلك تبدأ الصحافة الجزائرية بنشر العديد من القصائد لشعراء جزائريين،حيث تبرز مدرستان متكاملتان،مدرسة يتزعمها محمد العيد آل الخليفة بشعره الإصلاحي والاجتماعي،ومدرسة يتزعمها مفدي زكرياء بشعره الثوري والوطني،وتدريجا يعود الشعر إلى حضوره الفاعل في الحياة الثقافية."[2]

من هنا تبرز موهبة مفدي زكريا من خلال قدرته على صياغة العبارة الشعرية برقة، وقدرة عجيبة على تكثيف المعني،بحيث تصبح كلماته إلى متفجرات ،ورصاصات صائبة ، بلغة بسيطة قريبة من روح الشعب،حيث نجده في بعض الأحيان يكتب المقطوعات والأغاني باللهجة الشعبية.

1- المرجع نفسه،ص 52

2- د.أحمد حمدي، تاريخ الصحافة العربية في الجزائر،ص 17

ثانيا:العوامل المؤثرة في تكوينه وشعره

1ــ العوامل المؤثرة في تكوينه:

نشأ مفدي زكريا في بيت عمه نشأة وطنية منذ نعومة أظافره ، فقد كان جده الشيخ صالح بن يحي تربطه بالسلطة العثمانية معاهدة حماية ظلت سارية المفعول طوال عهد الاحتلال الفرنسي للجزائر حتى سنة 1880م،كما " يعد بحق ــ عمه ــ أحد الأقطاب الثلاثة أسسوا الحزب ما يملكه من مال وحماسة وتعاطف "[1]،وقد كان مفدي من بين أفراد البعثة العلمية التي قصدت تونس للأخذ من مناهلها العلمية العذبة تحت رئاسة أساتذة فضلاء أمثال الشيخ محمد الثميني، أبو اليقظان،الشيخ إبراهيم بن الحاج عيسى،وصالح بن يحي وإبراهيم أطعيش ،على هؤلاء العلماء وغيرهم درس مفدي زكريا دروسا دينية وأخرى في الوطنية، كما أنه التحق بمدرسة السلام القرآنية ومكث فيها سنين،وكانت هذه المدرسة بمثابة المنبع التي أخذ عنها مبادئ العربية والعلوم الأخرى على يد أساتذة من بينهم :الشاذلي الموالي، و عبد العزيز الباروني،صالح بن الأحمر،هذا الأخير تلقى عنه مفدي مبادئ اللغة الفرنسية .

ومن هذه المدرسة ــ السلام القرآنية ــ تحصل على الشهادة الابتدائية في اللغة العربية ثم بعد ذلك " دخل المدرسة الخلدونية، وفيها درس الحساب والهندسة والجبر والجغرافية ....ثم التحق بجامع الزيتونة، وفيه سنحت له الفرصة أن يطلع على كتب ذات أهمية بالغة في النحو والبلاغة والأصول ومن بينها كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينوري والتنقيح للقرافي، وفقه اللغة للثعالبي...ثم التحق ــ بالمدرسة الخلدونية ــ مرة ثانية ونال الشهادة الثانوية منها " [2]

وفي أحضان البعثة الميزابية في تونس ، " تلقى مفدي زكريا دروسا في الوطنية والدين على يد رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، يعلمون الناشئة بأفعالهم قبل أقواله

1 ـ محمد ناصر ، مفدي زكرياء ، ص 9 .
2 ـ محمد الهادي السنوسي ، شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، الشركة التونسية للنشر 1926م ، ص 151.

ويقدمون النموذج الحي بسلوكهم قبل دروسهم من أمثال أبي إسحاق وإبراهيم أطغيش ،و أبي اليقظان "[1]

فجو البعثة كان مليئا بالمظاهر التي تربي النشء على حب الوطن والحرية والاعتزاز بالمقومات الذاتية، دنيا ولغة.وكانت هناك شخصيات وطنية تزور البعثة من حين إلى لآخر من أمثال : " الزعيم الثعالبي، وابن باديس وغيرهما، ... سنة 1921م ."[2]

إذن لقد كان لهذه البعثة الدور الكبير في تحضير ذالك النشء،فقد جعلت من مفدي زكريا الفتى الوطني المسؤول القادر على تجاوز مختلف المحن والصعوبات التي تواجهه، وتقف عائقا أمام تطلعاته في طليعتها المستعمر الفرنسي .

كما تجدر الإشارة إلى أن الشاعر احترف النشاط السياسي وهو شاب، وخالط الأحزاب السياسية وأسرارها، ولما كان طالبا في تونس التحق بسلك الشبيبة الدستورية سنة 1922م ، وبعد عودته للجزائر سنة 1926م التحق بنجم شمال إفريقيا الذي حل بعده حزب الشعب ، و لما حل حزب الشعب اعتقل بعض أعضائه ومنهم شاعرنا مفدي زكريا سنة 1939م، و عندما خرج استأنف نشاطه السياسي في حزب انتصار الحريات الديمقراطية،وبعد انطلاق الثورة فداها بنفسه وأنشد النشيد الوطني سنة 1955م، وإذا كان السجن هو مدرسة لمن يلقب التاريخ نجد سجن شاعرنا عاملا ناضجا ينبض بالحياة في تجربته الذاتية والإبداعية ، وفي هذه السجون أبدع مفدي أروع قصائده الثورية إن لم تكن أروع ما نظم من شعر لأن المعاناة والمعيشة القاسية التي عاشها مفدي زكريا هي التي تفجر بصدق تلك الموهبة الفذة و كان مفدي زكريا نفسه يعتز بتلك القصائد التي كتب بعضها بدمه الذي سال في سبيل هذا الوطن المحتل فيقول

عن تلك القصائد " أنها القصائد الوحيدة التي يحفظها من شعره عن ظهر قلب، وأن تلك الظروف هي التي شرفته بأن أهداه الشعب وسام الجهاد فسماه "شاعر الثورة الجزائرية"[1]

1 ـ شعر مفدي زكرياء ، دراسة وتقويم ، ص 29.
2ـ محمد ناصر ، شاعر النضال والثورة ، ص 33.

ومن العوامل التي ساهمت أيضا في تكوين شخصيته العامل الديني، فالمطلع على إنتاج ومؤلفات شاعرنا يلمس تلك الروح والعاطفة الدينية التي تسري في شعره، لتأثره الشديد بالقصص القرآني وبالتاريخ الإسلامي عموما، ولا غرابة في ذلك إذ أنه من بيئة صحراوية سكانها يعرفون بالورع والتقوى والتدين الشديد وكمثال عن ذلك نجده يقول:"

نوفمبر غيرت مجرى الحياة وكنت نوفمبر مطلع فجـــــر

وذكرتنا، في الجزائر بـــدرا فقمنا نضاهي صحابة بدر"[2]

وقد تجلت ثقافة الشاعر الإسلامية من خلال شعره، حيث جاء متضمنا للقرآن الكريم بلفظه أو بمعناه، ومستشهدا بالحديث الشريف والتاريخ الإسلامي، ومما جاء في شعره قوله:"

شربت العقيدة حتى الثمالـــــة فأسلمت وجهي لرب الجلالة"[3]

هكذا أسهم الدين في تكوين شخصية مفدي زكريا وإرسائها،أما بالنسبة للعامل الآخر ألا وهو جانب الأسفار والرحلات،نجد أن مفدي قد جال أقطار الأمة العربية من أجل التنويه بالثورة الجزائرية،فذكرها في حفل تتويج إمارة العرش للملك الحسن الثاني،وأيضا عند انتقاله لدمشق من أجل مهرجان الشعر العربي،ولم ينسى القاهرة حيث مكث فيها أيام "و عند عودته من دمشق توجه مفدي إلى الكويت ومنها إلى قطر ثم عاد إلى القاهرة،ثم انتقل إلى ليبيا ثم إلى تونس." [4]

وخلال هذه الرحلات التقى بالعديد من الفنانين ومنهم وردة الجزائرية التي لحنت له قصيدة "أنا ثائر"،ولحنت وغنت قصيدة" صلوات سليمان" و"الذبيح الصاعد" ،ومجموعة من

1- محمد ناصر ، مفدي زكرياء ، ص 43.
2 - مفدي زكرياء ، شاعر الثورة الجزائرية ، ص 12.
3 - حواس بري ، شعر مفدي زكرياء، دراسة وتقويم ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1994م ،ص 206.
4 - المرجع نفسه ، ص 43.

الأناشيد يتنافس عليها كل من محمد فوزي،محمود الشريف وكمال الطويل،أما بالنسبة عن لقائه بأم كلثوم يقول إنها استقبلته قائلة: "أهلا وسهلا بك شاعرا ومرحبا بك ثائرا في أرضي وبلدي

الجزائر العربية ملهمة الأجيال ومعلمة البطولات وصانعة التاريخ وسأكون أسهمت إسهاما متواضعا في معركة العرب بالجزائر إذا ما غنيت معتزة فخورة بمقاطع نختارها معا من ديوان اللهب المقدس."[1]

فأصبح بذلك سفيرا بدون أوراق يخدم قضية الثورة.

هكذا عاش شاعرنا كطائر مغرد بأساليب فكرية وسياسية وأدبية ودينية جميلة،وكلها أساليب وعوامل ساعدت على تكوينه،خدمت بصدق الثورة الجزائرية وجعلت صوتها يسمع في المحافل المغربية والعربية والدولية.

2ــ شعر مفدي زكريا:

يشغل شعر مفدي زكريا مكانة متفردة ضمن الخطاب الشعري الجزائري المعاصر،كما ينفرد بتضافر عميق بين المبنى والمعنى،إذ أنه يحفل بسمو المعنى وعمقه مثلما يحفل ببلاغة الصورة الشعرية وكثافتها.

ولقد تضافرت أسباب وعوامل عديدة على بناء النص الشعري لدى شاعرنا،فاطلاعه الواسع على فنون الثقافة العربية واتجاهاتها وبطولاتها،بالإضافة إلى تأثره العميق بالقرآن الكريم،وكذلك ارتباطه وصلته بعناصر وحركات التحرر العربية الحديثة،والتي عملت على بث ونشر الوعي الوطني التحريري بين صفوف الأجيال الجديدة،ولذلك دخلت أشعاره التاريخ من أوسع أبوابه،وخلدت الجزائر في جميع مراحلها التاريخية القديمة منها والحديثة، لأن شعره كان صادرا عن تجربة نضالية طويلة واكبت تطور الحركة الوطنية في الجزائر منذ منتصف عشرينيات هذا القرن،إلى أن احتضنتها ثورة نوفمبر1954م.

1- المرجع السابق، ص 45

فقد بدأ مفدي كتابة الشعر في سن مبكرة من عمره ولم يتجاوز الثامنة عشر فقال:

"فأما الشعر فأنا فيه أستاذ نفسي غير أنني أعرض بصناعتي على أساتذتي ورؤساء البعثة الميزابية، ولقد قرأت الزحافات والعلل والدوائر..."[1]

ومن أهم العوامل التي ساعدت شاعرنا في الظهور على الساحة الأدبية تمييز البعثة الميزابية عن غيرها من البعثات التي حضت بعلماء وأساتذة كانوا مستعدين لتكوين من يستطيع الاعتماد في شتى المجالات،حيث إن ابن باديس وصف هؤلاء الطلبة بأقمار وثمار طيبة توشك أن تجني ثمارا لوطنها،إضافة إلى أن "مجلة الوفاق" المخصصة للناشئين كانت الباب الذي يخرج به شاعريته عن طريق نشر شعره فيها،وربما أول قصيدة هي تلك التي يرثي فيها أضحية العيد بعنوان "كبش الفداء"،أما الثانية فبمناسبة تأسيس جمعية نجم شمال إفريقيا.

أما بالنسبة للنشيد الوطني "قسما " فقد انتبهت قيادة الثورة بعد أشهر من اندلاع الثورة التحريرية إلى أنه لابد لها من نشيد رسمي يكون رمزا لها،لهذا " كلف عبان رمضان الشاعر مفدي زكريا بوضع هذا النشيد الذي خرج إلى الوجود في شهر أفريل 1955م،تحت عنوان "قسما"،وثم اعتماده كنشيد رسمي للثورة ليتحول بعد الاستقلال إلى النشيد الرسمي الوطني والذي مطلعه:

قسما بالنازلات الماحقات والدماء الزاكيات الطاهرات

والبنود اللامعات الخافقات في الجبال الشامخات الشاهقات

نحن ثرنا فحيات أو ممات وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر.

فاشهدوا.... فاشهدوا....فاشهدوا..."[2]

1- عبد المالك مرتاض، معجم الشعراء الجزائريين في القرن العشرين،دار هوما للطباعة والنشر والتوزيع،الجزائر 2007م،ص 75.

2 - سليمة كبير ، مفدي زكرياء شاعر الثورة الجزائرية ، ص 16.

فهي كلمات صادقة، واقعية، واضحة، معبئة بلغة الثورة في اللفظ والمعنى، فكأن كل كلمة من هذا الشعر شواظ من نار.

ومن ناحية الأسلوب فشعره محافظ على عمود الشعر العربي القديم،ورنينه عذب مؤثر جمعت ألفاضه بين الجزالة والرقة.

يقول الشاعر في مقدمة اللهب المقدس:"ولم أعن في اللهب المقدس بالفن...وتصوير وجه الجزائر الحقيقي بريشة من حروف قلبي، والشعر الحق في نظري إلهام لا فن وعفوية لا صناعة "[1]

كما يقول الدكتور عمر بن قتيبة: " وفي اللهب المقدس نحس النبض الثوري قصف مدافع،وشواظا من نار في كل صوب وزغرودة الاستشهاد وتكبيرة الشهادة،والإرادة الفولاذية التي أعلنت طيا لصفحة السياسية،وفتحا لصفحة الرصاص."[2]

وإذا كانت بدايات الشعراء الشباب عادة ما تكون تغزلا وحنينا إلى الجنس الآخر،فإن الذي يتضح من شعر مفدي زكرياء" منذ مطلع شبابه تغزلا بالجزائر،وإذا غذت ليلى رمزا للمحبوبة عند كثير من الشعراء العرب،فإن(ليلى) زكريا هي الجزائر كما تدل على ذلك القصيدة التي نشرها في سنة 1926م وفي عمره ثمانية عشرة سنة يقول:

الحب أرقني واليأس أضافـــي والبين ضاعف آلامي وأحزاني

والروح في حب (ليلاي)استحال دمع فأمطره شعري ووجدانـــي"[3]

غير أنه أحيانا كان يطلق على الجزائر اسم " سلمى " ويناجيها مناجاة غزلية عذبة فيها كل ما نلحظه في الغزل العذري العربي، ولعلنا نلمس ذلك من خلال الأبيات التالية:"

1 ـ محمد بوزواوي ، معجم الأدباء والعلماء المعاصرين من 1798م إلى 2009م ، الدار الوطنية للكتاب ، ص 41 ـ 42.
2 ـ المرجع السابق ، ص 45.
3 ـ محمد ناصر ، مفدي زكرياء ، ص 31.

رسول الهوى بلغ سلامي إلى سلمى وعاظ حميما ثغرها الباسم الألمى

وناج هواها، على في الغيب رحمة تدارك هذا القلب أن ينقضي هما "[1]

كما تتمثل رومانسية مفدي زكريا من خلال الحنين الجارف إلى الماضي الحضاري وتذكر أيام العزة والسيادة يقول:"

هو الدهر في قوس الطوارق ما أبقى فلله ما لقيت منه وما ألقـــــــــي

وتلك عهود، ما ألذ كؤوسهـــــــــا لو أن بريق السعد كان بها صدق

ويحتل الحديث عن الإسلام منزلة مرموقة من شعر مفدي زكريا،ويمزج بعمله الشعري هذا الامتزاج الذي يكون المادة الشعرية إذ يقول:

وأيقنت أن المجد سبل خطيرة فقدمت دون المجد روحي وآماني

فما المجد إلا جنة دون وصلها تناثر أعناق وتمزيق أوصـــــال

تذرعت بالعزم الصدوق فلم تكن سوى القبة الزرقاء مطمح آمالي"[2]

فالكلمات الواردة في هذا النص مثل: المجد، الجنة، القبة الزرقاء ترمز إلى الاستقلال والحرية، والسياق الشعري الذي وضعت فيه يدل دلالة واضحة على ذلك.

كما كان للسجن دور هام وكبير في شعر شاعرنا،فقد زج به في سجون الاستعمار، و هناك سلط عليه أشد العذاب،" ومما أثر عليه تأثيرا قويا تسليط الضوء الشديد على عينيه مدة طويلة مما أضر ببصره،وسبب له آلاما حادة في عينيه لازمته إلى آخر حياته،وفي السجن شهد مفدي تقديم البطل أحمد زبانة إلى المقصلة،فكان أول شهيد يعدم بهذه الآلة الجهنمية، أثرت هذه

1 ـ المرجع نفسه ، ص 33.
2 ـ المرجع السابق ، ص 34.

الحادثة على الشاعر مفدي زكريا فخلدها في قصيدة "الذبيح الصاعد"التي تألفت من ثمان وستين بيتا،قال فيها:[1]

اشنقوني فلست أخشى حبالا واصلبوني فلست أخشى حديـــــدا

وامتثل سافرا محياك جلادي ولا تلثم فلست حقـــــــــــــودا

واقض يا موت ما أنت قاض أنا راض إن عاش شعبي سعيـــدا

أنا إن مت فالجزائر تحيـــا حرة مستقلة لن تبيـــــــــــدا

ولقد لخص سنوات سجنه في مؤلف نثري بعنوان "ست سنوات في سجون فرنسا"،ففي الزنزانة أبدع أروع القصائد،منها هذه القصيدة التي كتبها في سجن البرواقية سنة 1958م ، وألقيت بإذاعة صوت العرب بالقاهرة،تحت عنوان "اقرأ كتابك"، يقول:

هذا (نفمبر) قم وحي المدفعا واذكر جهادك والسنين الأربعا

واقرأ كتابك للأنام مفـــصلا تقرأ بها الدنيا الحديث الأروعا

واصرع بثورتك الزمان وأهله واقرع بدولتك الورى و المجمعا

واعقد لحقك في الملاحم ندوة يقف السلاح بها خطيبا مصقعا

وقل الجزائر واصغ إن ذكر اسمها تجد الجبابر ساجدين وركعـــا

إن الجزائر في الوجود رسالـــة الشعب حررها وربك وقعـــــا"[2]

إن الجزائر قطعـــة قدسيـــة في الكون لحنها الرصاص ووقعا

1 ـ مفدي زكرياء ، شاعر الثورة الجزائرية ، ص 20.
2 ـ المرجع السابق ، ص 21.

غير أن أعظم عمل شعري لدى مفدي زكريا يتمثل في "إلياذة الجزائر"،التي احتلت صدارة كبيرة بين الأعمال الشعرية والتاريخية في الجزائر ،وهي أهم أعماله على الإطلاق،وقد سميت بإلياذة الجزائر تشبيها لها بإلياذة هوميروس،ولكن الحقيقة أنها أروع وأعظم،فبينما تروي الإلياذة اليونانية أساطير وحكايات،نجد الإلياذة الجزائرية تخلد أمجاد وبطولات حقيقية لوطننا،وقد قسمها الشاعر إلى قسمين رئيسيين :قسم الجمال،ولصيف فيه الجمال الطبيعي للوطن،وقسم الجلال،لصيف فيه أمجاده التاريخية.

أما بالنسبة إلى نظمها وإلقائها فقد جاءت فكرتها " بطلب من الأستاذ مولود قاسم نايت بلقاسم ،بمناسبة الذكرى العاشرة للاستقلال،وهو الذي كتب المقدمة طبعتها الكاملة التي يقول فيها:لقد تحمس مفدي زكرياء لفكرة الإلياذة بمجرد أن تلقى رسالتي،وتعاونا نحـــــن الثلاثة :المرحومين مفدي زكرياء،عثمان الكعاك المؤرخ التونسي وكاتب هذه السطور في وضع المقاطع التاريخية،فكنا نتهاتف ليلا خاصة،وكانت البادرة تعود إلى مفدي...."[1]

هكذا نمت وترعرعت الإلياذة الجزائرية ووصل عدد أبياتها في ظرف بضعة أشهر ستمائة وعشرة أبيات،أنشدها مفدي بصوته،ونبرته وصرخاته في افتتاح الملتقى السادس للفكر الإسلامي.

هذه مقاطع مختارة من الإلياذة، فأما من قسم الجمال فيقول:"

جزائر يا بدعة الفاطـــر ويا روعة الصانع القـــــــادر

ويا بابل السحر،من وحيها تلقب هاروت بالساحـــــــــــر

ويا جنة يستحم الجمال ويسبح في موجها الكافـــــــــر

1 - المرجع السابق ، ص 27.

جزائر أنت عروس الدنا ومنك استمد الصباح السنـــــا

وأنت الجنان الذي وعدوا وإن شغلونا بطيب المنـــــــى

وأنت الحنان وأنت السما ح،وأنت الطماح،وأنت الهنا

وأنت السمو،وأنت الضمير الصريح الذي لم يخن عهدها

ومنك استمد البناة البقاء فكان الخلود أساس البنـــا

شغلنا الورى وملأنا الدنا

بشعر نرتله كالصـــــلاة

تسابيحه من حنايا الجزائر

و أما من قسم الجلال يقول:

تأذن ربك ليلـــــة قـــدر وألقى الستار على ألف شهر

وقال له الشعب أمرك ربـــي وقال له الرب أمرك أمـــري

ودان القصاص فرنسا العجوز بما اجترحت من خداع ومكـــر

ولعلع صوت الرصاص يـــدوي فعاف اليراع خرافات حـــــبر

. . . . . .

نوفمبر جل جلالك فينـــــــــــا ألست الذي بعث فينا اليقـــــــينا

سبحنا على لجج من دمانـــــــا وللنصر رحنا نسوق السفـــــــينا

وثرنا نفجر نارا ونـــــــــورا ونصنع من صلبنا الثائـــــــرينا

. . . . . .

بلادي بلادي، الأمان الأمان أعني علاك بأي لســـان

جلالك تقصر عنه اللغـــــى ويعجزني فيه سحر البـــــيان

. . . . . .

إليك صلاتي وأزكى سلامي بلادي بلادي، الأمان الأمان

شغلنا الورى وملأنا الدنـــــا

بشعر نرتـــله كالصـــــلاة

تسابيحه من حنايا الجزائر "[1]

كما يعتبر صاحب الروائع في الجزائر فهو"صاحب الأناشيد الوطنية ،النشيد الوطني الجزائري،ونشيد مؤتمر المصير بتونس،ونشيد إتحاد النساء التونسي،ونشيد معركة بنـــزرت التاريخي،ونشيد الجلاء عن المغرب،ونشيد الجيش المغربي ،ونشيد الفداء الجزائر الذي دشن الثورة الجزائرية ضد المستعمر الفرنسي،ونشيد العلم الجزائري،نشيد الشهداء ونشـــــــيد جيش التحرير الوطني،نشيد الإتحاد العام للعمال الجزائريين،نشيد إتحاد الطلاب الجزائريين ونشيد المرأة الجزائرية،نشيد بربروس، أما نشيد إلياذة الجزائر فهو الذي تـــوج به كـــــــــل الروائع واعتبرت إلياذة الروائع لما فيه من جماليات ومزج بين التاريخ المجيد والراهن الثائر والحرية والتحرر."

1 ـ المرجع السابق ، ص 32.

عير أنه تجدر الإشارة إلى أن شاعرنا لم يبدع الشعر الفصيح فحسب، و إنما أبدع الشعر الشعبي أيضا،الذي لا يقل روعة وجمالا عن شعره الفصيح،وخاصة في قصائده الثورية والعاطفية،التي لم تصلنا،" ولعل السؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو:إذا فأين كل هذا الإنتاج،لماذا لم ينشر ليستفيد منه القراء؟...ويذكر مفدي زكريا في مقابلة له مع الصحفي الأدبي بلقاسم بن عبد الله في جويلية سنة 1972بأن له من الآثار الأدبية ما يلي:

ـــ تاريخ الأدب العربي عبر القرون.

ـــ تاريخ الصحافة الجزائرية،

ـــ تاريخ الفولكلور الجزائري.

ـــ أضواء على وادي ميزاب (دراسة تاريخية).

ـــ نحو مجتمع أفضل.

ـــ سبع سنوات في سجون فرنسا.

ـــ حوار المغرب العربي الكبير في معركة التحرير.

ـــ قاموس المغرب العربي الكبير (اللهجات).

ـــ الثورة الكبرى(أبريت).

ـــ في العيد(رواية).

ـــ عوائق انبعاث القصة العربية.

ـــ مائة يوم ويوم في المشرق العربي."[1]

1 ـ محمد ناصر ، مفدي زكرياء ، ص 22.

إن هذا الحشد الهائل من الإنتاج الفكري المتنوع، لم يصلنا منه للأسف الشديد سوى دواوينه المطبوعة المعروفة في" اللهب المقدس"، "تحت ظلال الزيتون"، " من وحي الأطلس"، " إلياذة الجزائر"، أما باقي الأعمال الأخرى فإنها ما تزال متناثرة في الصحف العربية ولاسيما في أقطار المغرب العربي.

الفصل الثالث

ثنائية الغربة والحنين

أولا: تجليات الغربة

ثانيا: تجليات الحنين

أولا: تجليات الغربة عند مفدي زكرياء

تشكل الغربة ظاهرة جديرة بالملاحظة عند مفدي زكرياء، حيث تتموضع في ثنايا الأبيات الشعرية، فترد أحيانا صراحة، فيما تأخذ طابع التضمين في أحيان أخرى، ولعل الشاعر قد تبلور لديه الإحساس بالغربة والاغتراب من خلال معايشته لظروف السجن ؛ هذا المكان المغلق الذي ينقطع فيه الاتصال بالآخر، ويكون مدعاة لأنواع من أحاديث النفس والحوار الذاتي، وربما قاد إلى مساءلة ما يؤثث فضاء السجن ، أو ما يمكن أن يكون دافعا للجوء إلى الطبيعة، بوصفها آخر مفترضا يجري استنطاقها على نحو تنوب فيه عن الإنسان، ويتخلص فيها الشاعر من أشكال التوحد والعزلة النفسية والفيزيائية ناهيك عن أنواع أخرى من الغربة الاجتماعية والسياسية.

وتتجلى صور الغربة في قصيدة "الذبيح الصاعد" التي نضمها في سجن (بربروس) والتي يقول فيها[1]:

أمن العدل صاحب الـــدار يشقى ودخيـــــل بهـــا يعيش سعيدا
أمن العدل صاحب الدار يعـــرى وغريـــب يحتل قصرا مشيدا
ويجوع ابنها فيعـــدم قـــــوتـــا وينال الدخيل عيشـــا رغـــيدا
وبيبح المستعمرون حمـــاهـــا ويظل ابنها طريـــدا شريـــــدا

تحيل هذه الأبيات إلى غربة واغتراب اجتماعي قوامه الذل والتشرد والشقاء، وبقدر ما تفصح الأبيات عن عزلة تستدعي مفارقة قائمة على أن الدخيل يعيش عيشا رغيدا، بينما يعاني المواطن الأهلي ويلات الاستعمار، فهذه الغربة يدل عليها لفظ (غريب)

غير أن هذا الغريب لم يأت إلا ليحل محل الأهلي وبالتالي استحال إلى صاحب الدار عنوة، وهذا لا يخرج عما قاله حافظ إبراهيم منددا إياه بالاحتلال البريطاني لمصر، حيث يقول[2]:

أمن العدل أنهم يطلقون الأسرى منهم وأن أســـــــــــــري
أمن العدل أنهم يردون المـــــاء صفوا وأن يكـــــــدر وردي

1- مفدي زكريا، اللهب المقدس، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983م، ص 16.
2- حسن فتح الباب، مفدي زكرياء شاعر العروبة والإصلاح في الجزائر، مجلس الأدب الإسلامي، العدد 18، المجلد 5، ص 7.

كما تتجلى صور العذاب في قصيدته (زنزانة العذاب رقم 77)، إذ يحاول الشاعر خلالها أن يعبر عن نفس حزينة بين جدران الزنزانة، يقول[1]:

سيان عندي مفتوح ومـــنغـــــــلق يا سجـــن بابك أم شدت به العلق
أم السياط بها الجـــلاد يلهبـــنـــــي أم خازن النار يكويني فأصطفق
والحوض حوض، وإن شتى منابعه ألقى إلى القعر أم أسقت فأنشرق
سري عظيم فلا التعذيب يسمـــح لي نطقا ورب ضعاف دون ذا نطقوا
يا سجن، ما أنت ألا أخشاك تعرفني من يحذق البحر لا يحذق له الغرق
إني بلوتك في ضيق وفي شعـــــة وذقت كـــــأس لا حقـــد ولا حـــنق
أنام ملء عيوني غبطـــة ورضـــــا على صياحك لا هم ولا قلـــــــق
طوع الكرى أناشيدي تهدهـــدني وظلمة الليل تغرينـــي فأنطـــلق

ترينا هذه الأبيات صورة حزينة لمكان خاص بأنواع عديدة من ألوان العذاب (سياط، كي، أحواض مائية، ضيق نفسي، وغياب النوم ، وظلمة الليل)، وكلها تشكل صورة لغربة الشاعر وحزنه داخل غياهب السجن، لكنه توجه بها وجهة أخرى إذ بدا متحديا عنيدا لا يأبه بالآلام ولا يستشعر الغربة، وهذا لا يخرج عما قدمه المتنبي في قوله[2]:

كن أيها السجن كيف شئت فقد وظنت للموت نفس معترف
لو كان سكناي فيك منفقـــصة لم يكن الدر ساكن الصدف

وقوله كذلك[3]:

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

فتغير الوزن والقافية لا يقلل من تأثير صور المتنبي وصياغته وقوة إحكام نسجه، في قصيدة "مفدي زكريا"، فالواضح أن الشاعر لم يشعر من المتنبي هذا المعنى وحده بل استعاره ضمن موضوعه أيضا أي أنه لجأ مثل المتنبي إلى موقف احتجاجي رافضا لهذا العالم المتوحش الذي يحكمه الطغاة.

1- المرجع السابق، ص 21.
2- عبد الرحمن البرقوقي، ديوان المتنبي، الجزء الثالث ، دار الكتاب العربي، بيروت، ص 24.
3- المرجع نفسه، ص 184.

ولليل بصمة خاصة عند شاعرنا، إذ نجده يعبر عن غربته من خلال هذه الأبيات[1]:

والليل يكتم في ظلماتئـــه شبـــحا يأوي إلى شبح ضاقت به الطرق

يا ليل، كم لك في الأطواء من عجب يا ليـــل، حالك حالي أمرنا نسق

يفصح لنا هذان البيتان عن غربة نفسية، فشاعرنا هنا يناجي الليل ويتحدث إليه لأنه لم يجد أي خليل يخفف عنه وحدته، والليل مبعث تذكر الأشجان والأحزان والهموم والشعور بالغربة، وهو أيضا في الآن ذاته محاور أيضا، بقدر ما فيه من وحشة يغدو آخر يتجه إليه الشاعر بالحديث، حديث يقطع سكون الليل، لا ليسمع الآخرين ، ولكن ليلقي في روع الليل كلماته، فهو مبعث الوحشة والغربة مقرونا بالسجن وما به من مآس من جهة، ومن جهة أخرى أنيسا مفترضا يلهم الشاعر فيجيش صدره بما يختلج من شكوى وما يحصل من شقاء، غير أن هذا الليل هيهات يملك من أمره شيئا لأنه يعيش الحال نفسها مع الشاعر وكأنه يتماهى مع الليل وما يكتنفه من عجائب وأسرار، ويشق عليه في النهاية أمر الليل نفسه على نحو يحمل على الاعتقاد أن حال الشاعر هي في منتهى الاغتراب.

كما عبر الشاعر عن أحاسيسه ومشاعره لاجئا إلى الطبيعة، واختار منها وقت الرواح، وفي قصيدته (زنزانة العذاب رقم 73) نجده يناجي الكواكب كالقمر، يقول[2]:

واستأذني في رسالات الهوى قمرا يرنـــــــو إليه كلانا حين ينشق

إني رأيت أخاك البدر ذائـــــقـــــه حلت أياديه في دنيا الألى عشقوا

يحيل البيتان إلى غربة نفسية قوامها أن الشاعر يعرض لنا كيف استعاض عن الناس متجها إلى الكون يخاطب ويناجي الكواكب جاعلا بذلك الطبيعة الصامتة طبيعة ناطقة ينعبث منها شعور متدفق وإحساس مرهف، وإذ كان شاعرنا يميل إلى ما هو واقعي بحكم طبيعة شعره التي خبرناها من خلال قصائده الجزلة، التي تغرف من حقل معجمي مميز، يحتوي لغة الرصاص والمدفع والرشاش والرايات المخضبة بالدماء، ويكفي أن الشاعر كتب بعض قصائده بدمه، فإننا نجد هنا ميلا ظاهرا إلى اللجوء إلى الطبيعة بمفاجآتها على نحو يعكس نزوعا رومانسيا لدى الشاعر ، وربما أملت عليه الحالة النفسية الصعبة لونا من ألوان التوحد مع الطبيعة إلى طفق يبحث فيها عن سلوى لحالته المستعصية.

1- المرجع السابق، ص 184.
2- المرجع نفسه، ص 26.

أما في قصيدته (قال والله) التي نظمها الشاعر في سجن البرواقية مخلدا الذكرى الثالثة للثورة الجزائرية سنة 1957م، والتي يقول فيها[1]:

قرير العين في الفلوات أضحى يعاف النـــاس مذ ألف الذئابا

فما يدري بجنبه نفـــــــاقــا ولا كذبـــا ولا خان الصحابا

فهذه الأبيات تبين لنا أن الشاعر يفضل الوحدة والغربة على مخالطة أراذل الناس ممن درجوا على النفاق والكذب . ويستدعي هذان البيتان حضور قصيدة (الشنفرى) لامية العرب، والتي جاء فيها:

ولي دونكم أهلون سيد عملـــس وأرقط زهلول وعرفاء جيأل

هم الأهل لا مستودع السر ذائع لديهم ولا الجاني بما جر يخذل

وهي بمثابة عودة إلى الفطرة وإلى صفاء البداوة، ونقاء الأصل في مقابل مخالطة لا يرجى من أمرها شيء.

وفي قصيدته (وتعطلت لغة الكلام) التي نظمها في سجن "بربروس" سنة 1959 يقول:

غنى بها في الليل يعزف لحنها وقع السلاسل ... والرفاق نيام

في مضمون هذا البيت نلتمس غربة روحية منبعها الليل، فشاعرنا لم يجد إلا الليل ليفر إليه ويفرغ ما بجعبته، وفي الليل تتجلى الحكمة والوقار، ويفتح عالم الرؤى أبوابه، و"الليل مذ كان الإنسان على الأرض رواق كبير يستجمع فيه الإنسان أفكاره"، ويرسل أحلامه في صمت وعمق ، وهو منذ كان وحي الشعراء والفلاسفة ، وكثيرا ما يجد الشاعر والفيلسوف نفسيهما في الليل"[2].

وهذا بيت آخر يقودنا إلى اكتشاف غربة من نوع آخر تعرف بغربة المستضعفين نلمسها في قصيدته (أهدافنا في العالمين صريحة)، وهذا بيت منها[3]:

يجد القوي من القوي مناصـــرا وتخيب آمـــال الضعيف ويحرم

وتمتد معاناة الشاعر لتتقاطع مع معاناة الوطن والشعب بأكمله، فالشعب الذي يلتفت يمنة ويسرة لا يجد من يقف إلى جانبه في المحافل الدولية في حين تزداد قوة القوي من خلال مشايعة

1- المرجع السابق، ص37.

2- أحمد زكي العشماوي، الأدب وقيم الحياة المعاصرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974م، ط2، ص 440.

3- اللهب المقدس، ص 147.

ذوي القوة لقوة للاحتلال ، ما يذكرنا بذلك الاغتراب السياسي الذي عبر عنه "جون جاك روسو"، قوة غير حامية للضعفاء أو مقرة للعدل، غير أنها بانحيازها أو تقاعسها أو مناصرتها للاحتلال تجعل الشعب يشعر بلون من ألوان الاغتراب السياسي في دعم الدول الكبرى لقوة الاحتلال وتأثيرهم على الهيئة الأممية.

ثانيا: تجليات الحنين عند مفدي زكرياء

يرتبط الحنين بالغربة على نحو يغدو وجود أحدهما يستدعي الآخر ، غير أن هذه ليست قاعدة عامة يمكن سحبها على كل الحالات قدر ما هي ماثلة في الأعم الأغلب ، ما يمثل نزوعا موجودا لدى هذا الشاعر أو ذاك ، أما عند بعض الشعراء فإن الشعور بالحنين إلى الوطن أو إلى أيام الصبا ، أو إلى ظروف معينة لا يعني بالضرورة استدعاء الغربة ، غير أن مفدي زكريا يطالعنا بحنين آخر يرتبط بالسجن تارة ويكون مرفوقا بغربة من نوع آخر ، ليست غربة وجودية ناتجة عن فلسفة مغرقة في التجريد ولا حنينا إلى هذه أو تلك ممن تذكر بأيام ليست برواجع . إن مفدي زكريا وهو في سجن "بربروس" لا يملك القدرة في المضي قدما وتحدي الصعاب، لأن تمويه الواقع لا يغير حقيقة الغربة والذل حين سجنه، ولم يستطيع محو الألم إلا بينه وبين نفسه في لحظات الأسى ، لذلك نجد مفدي زكريا مضطرا إلى الاستماع إلى لغة الداخل التي قهرها البعد وأضنتها الغربة بين جدران السجن، فحاول أن يعيش لحظة حنين إلى الحرية وإلى الوطن الضائع والمفقود، لذلك نجده يستغيث ويصرخ، وفي هذه المرة نجد أن المستغاث به هي (مصر) التي غدت مكانا آمنا لكل مغترب عربي فقد وطنه أو نفي منه[1].

ولمصر دار للعروبة حـــــــــــــرة تأوي الكرام وتســـند المتطلعـــــا
سحرت روائعها المدائن عندمـــــــا ألقى عصاه بها الكلـــيـــم فروعا
النيل فتح للغريب ذراعـــــــــــه والشعب فتح للشقيق الأضلعـــا
يا مصر يا أخت الجزائر في الهوى لك في الجزائر حرمة لن تقطعا
هذي خواطر شاعرتي بهـــــــــــا في الثورة الكبرى فقال وأسمعا
وتشوقات من حبيس موثـــــــــــق ما انفك صبا بالكنانة مولعـــــا

1- اللهب المقدس، ص 64.

إنها استغاثة نابعة من صميم الفؤاد لأن شاعرنا صار غريبا بين مجاهيل السجن ، وقد حاول من خلال هذا النداء الباكي أن يلفت الأنظار إلى هذه الذات التي تعاني جملة أسباب ضاعفت من غربتها أهمها : البعد عن الأهل والانقطاع التام عن العالم الخارجي وانتظارها ساعة الإعدام ، والاستغاثة نفسها أسلوب قديم اعتاده غرباء السجون ، وهذا ما نجده عند أبي فراس الحمداني حين قهرته قسوة الجلاد ووحشة السجن ، فقال يستغيث بسيف الدولة راجيا منه العفو يقول :[1]

دعوتك والأبواب ترتج دوننا فكن خير مدعو وأكرم منجد

بالإضافة إلى ذلك نجد شاعرنا قد خالط الأحزاب السياسية وأسرارها وخباياها ، وكان صريحا برأيه يجاهربه في المحافل الدولية ، وهاهو يذكرنا حتى لا ننساه وهو في أشد قوته رغم غربته وبعده : [2]

وإن جفاني ذوو القربى فلا عجب إن النبوة في أوطانـــــــ ها خرق
سيذكرون إذا الليل الرهيب سجى وجلجل الخطب أني في الدجى فلق
حسبي وحسبي أناس أن غدوت لهم عودا يعطرهم ذكـــــ ري وأحترق

تفصح لنا هذه الأبيات على أن شاعرنا قد خيل إليه أن خصومه السياسين خارج السجن يشمتون به اليوم ، وهو داخل السجن ، وهذا الموقف شبيه بموقف سابقيه ، فقد نظر إلى قول أبي فراس الحمداني والذي قال فيه :[3]

سيذكرني قومي إذا جد جدهم وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

إن أبا فراس الحمداني تتكر له ذووه وأصدقاؤه ، غير أن هذه الغربة والوحدة قد تكشف عن معاناة جراء ذلك التنكر ، تفصح عن إرادة قوية وثقة بالنفس ، وتأكيد للذات حتى لا يتطرق إليها الشك ، فهو متأكد بقدوم ذلك اليوم الذي سيلتفت فيه أولئك الذين نسوه وسيجدونه نعم المخلص هو.

1 ـ ابن خلويه ، ديوان أبي فراس ، دار بيروت للطباعة والنشر ، 1979 م ، ص 83 .
2ـ اللهب المقدس ،ص 29 .
3 ـ ديوان أبي فراس ، ص 161.

فإذا كانت غربة أبي فراس مع أهله مدعاة لأن يرفض دعوتهم حال أن يستغيثوا به ، فإن مفدي زكرياء يأبى إلا أن يتناسى أحقاده ــ إن وجدت ــ لأن نفسه نفس كريمة تأبى أن تهبط إلى دركات الأحقاد لأنها تتعلق بالعظائم ليس إلا.

وليس بعيدا أن يستمد صورة أخرى شبيهة بسابقتها ،ومن قول العرجي :[1]

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

فمفدي زكرياء إذن قد قصد إلى هذه الصورة من أجل جعلها " ردود فعل تعويضية عما يصاب به الشاعر من سقوط وهوان في منزل الظلم والذل ، فيسعى لأن يعيد إلى نفسه قيمتها واعتدادها، فيقابل الوقائع الصارخة بالإدعاء الواهن. " [2]

إن انتقال مفدي زكرياء من ميدان الحياة المملوءة بجو النشاط السياسي والفكري إلى جو السجن قد أوجد نغما حزينا لديه ، فالشاعر وهو في سجن بربروس يعزف لحنا عاطفيا يصور فيه شوقه وتلهفه ــ إلى سلوى ــ إنه يناجيها مناجاة عذبة رقيقة من قعر الزنزانة رقم(73) في أبيات رائعة تكمن روعتها في عمق النغم الحزين والألم المثير وذلك في التصوير البارع فلم يجد ــ غيرسلوى المحبوبة يرتد إليها حنينا وشوقا : [3]

ورب نجوى كدنيا الحب دافئة قد نام عنها رقيبي ليس يستــرق

عادت بها الروح من سلوى معطرة فالسجن من ذكر سلوى كله عبــق

سلوى أناديك سلوى مثلهم خطأ لو أنهم أنصفوا كان اسمك الرمــق

هل تذكرين إذا ما الحظ حالفنا إليك أهتف يا سلوى فنتفـــــــق ؟

أم تذكرين ولحن الموج يطربنا إذ نفرش الرمل في الشاطئ ونعتنق ؟

الموج ينقل في أصدائه قبلا يندى لها الصخر حتى كاد ينفلـــق

وبهذا يكون الشاعر قد عبر عن غربة موحشة ، وحنين طاغ إلى المحبوبة ، حيث نجده يهتم كثيرا بمعاينة الماضي ، الذي يثيره معجم الذكريات العطرة ، فالدارسون راحوا يحللون بعدما أعجبوا بهذه النجوى على أنها تجربة حنين إلى الوطن وليست حنينا إلى سلوى التي هي امرأة يعشقها وقد حالت بينهما غربة السجن ، وإذا كان محمد ناصر قد وقف حائرا أمام سلوى

1- ابن جني ، ديوان العرجي ، تحقيق خضر الطائي ورشيد العبيدي ،الشركة الوطنية للطباعة والنشر ،بغدا د،1956م، ط1 ص34.

2- أحمد مختار البزرة ، الأسر والسجن في شعر العرب ، مؤسسة علوم القرآن ، دمشق 1985م ، ط 1 ، ص 465

3 - اللهب القدس ، ص 21.

أهي المحبوبة أم الوطن*[1] ، فإن محمد الصادق عفيفي يجزم بأنها الوطن *[2] وتبعا لمفهومه فإن حنين الشاعر لم يكن إلا للمعركة ، ويعتمد الناقد في مذهبه هذا على بيت شعري يقول فيه مفدي زكرياء :[3]

وأنت يا سجن لو ألفت ناصيتي رأيتني لخطوط النار أحترق

فبعد تأملنا لقوله هذا ، نجد أن الشاعر إنما يعبر عن تجربة حنين إلى سلوى المحبوبة وذلك لسببين اثنين " فأما الأول : إن الحنين إلى الوطن يختلف عن الحنين إلى المحبوب[4] "

فعند الحنين عند الوطن " تغمر صور الأرض ورائحتها وذكرى الماضي ...وفي الشوق إلى الأهل يبرز الإنسان متمثلا في الأحبة ، وتتدانى الشخوص وتتمايز حتى تكون العنصر المهيمن في الصورة والباعث الأول للسجن[5] " أما السبب الثاني فيكمن في " تجربة الشوق والحنين لدى مفدي ، هذه التجربة التي لا تخرج كثيرا عما قدمه ابن زيدون في نونيته الرائعة ، فكلاهما تفيضان بأحاسيس الفراق والحزن والجوى ، وقد اتكأ مفدي على صور ابن زيدون التي أنجزها في زمن البعد والنوى، رغم اختلاف الوزن والقافية بين القصيدتين[6] "

كما يمكننا تتبع هذا الاعتماد على نونيته التي يناجي فيها محبوبته مناجاة الجلال يقول : [7]

لسنا نسميك إجلالا وتكرمة وقدرك المعتلي عن ذاك يغنينا

يقول مفدي زكرياء :[8]

سلوى أناديك سلوى مثلهم خطأ لو أنهم أنصفو كان اسمك الرمق

ويتسامى الحب عند ابن زيدون ، فيصير سرا صوفيا ، يقول :[9]

سران في خاطر الظلماء يكتمنا حتى يكاد لسان الصبح يفشينا

أما مفدي فيقول :[10]

وتغرب الشمس تطوي في ملائتها سرين أشفق أن يفشيهما الشفق

1* ـ أنظر ، محمد ناصر ، شعر الثورة من جانبه الفني ، الثقافة ، الجزائر ، مارس 1985 م ، ص 139.
2 *ـ محمد الصادق عفيفي ، النقد التطبيقي والموازنات ، ص 326.
3 ـ اللهب المقدس ، ص 28.
4ـ عمر بوقرورة ، الغربة والحنين في الشعر الجزائري الحديث 1945 م ـ 1962 م ، ص 96.
5 ـ أحمد مختار بزرة ، الأسر والسجن في شعر العرب ، ص 490.
6 ـ عمر بوقرورة ، الشعر الجزائري الحديث 1945 م ـ 1962 م ، ص 96 .
7 ـ ديوان ابن زيدون ، ص 12.
8 ـ اللهب المقدس ، ص 22.
9 ـ ديوان ابن زيدون ، ص 12.
10 ـ اللهب المقدس ، ص 314.

ويتوسل ابن زيدون من بعيد ليطلب الود من ولادة ، يقول :[1]

دومي على العهد مادمنا محافظة فالحر من دانا إنصافا كما دينا

يقول مفدي : [2]

ردي على أهازيجي موقعة فقد أعارك وزنا قلبي الخفق

فبعد قراءتنا لهذه الأبيات نخلص إلى أن نغم القصيدة لايخرج عما قدمه الأولون .

ولا تزال القصائد التي تحمل في طياتها الحنين إلى الوطن مستمرة ، وفيها تظل العلاقة بالوطن واضحة منذ بداية القصيدة إلى نهايتها ، وحاول من خلال هذا الحنين أن يجسد حالته المأساوية ، فهو بعيد عن الوطن ، يقول : [3]

جزائر مهما باعد الخطب بينـــــنا تباركني النجوى وتهف بي الذكرى

حنيني إلى القصباء هاج مدامعـــي وشوقي إلى بلكور أفقدني الصبرا

وفي حي باب الواد ماضي صبابتي تركت بباب الواد من كبدي شطرا

ويا فتنة الأبيار والسعد باســـــم ألم تنسك الأبعاد أيامنا العطـــرا

وفي القبة الفيحاء عش خواطــري تركت بها لما أحاطوا بنا وكـــرا

وفي حرم الصحراء أهلي وجيرتي وربعي وخلاني وأكبادي الحـــرى

ذكرتهم والسجن لف ظلامـــــــه لواعج إلف ، فارق الأهل مضطرا

والقصيدة طويلة ذكرنا منها هذه الأبيات لاستدعائها عنصر الحنين ، حيث تعد من أنجح القصائد التي عبر فيها الشاعر عن غربته ، فهو يعتمد على الحركة النفسية وهي تتصارع مع عالم الحواجز لتتعداها إلى مرابع الذكريات ، وقد استطاع أن يشحن قصيدته بالإيحاء الملائم للمناخ النفسي الذي يشيع في تلك الأبيات مثل (النجوى ، الذكرى، مدامعي ، كبدي ، عش خواطري) وهو يذكر أحياء معينة يحن إليها ، وهاته الأحياء تذكره بالصبابة ومرابع الطفولة .

إضافة إلى ذلك نجد في قصيدة أخرى له والتي تكشف لنا عن موقف عاطفي برقته وامتلائه بأحاسيس الفراق والحزن . وإذا كانت القصيدة السابقة صادرة عن حنين طاغ إلى الوطن وشوق إلى الحرية والاستقلال ، فإننا نجدها تتشابه مع موقف ابن زيدون لامتلائه بأحاسيس الفراق والحزن والجوى ، يقول مفدي في قصيدته (ماذا تخبئه يا عام ستينا) :

1 ـ ديوان المتنبي ، ص 12.
2 ـ اللهب المقدس ، ص 315.
3 ـ المصدر السابق ، ص314 .

عام مضى كم خابت أمانــينا ماذا تخبئــه يا عام ستيــنا

وفي ذلك تناص مع نغم ابن زيدون في نونيته الشهيرة ، التي يقول فيها : [1]

أضحى التنائي بديلا عن تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا

كما يصدر في رسالة الشعر في الدنيا المقدسة، عن نشوته وفرحته باللقاء العربي الموحد في مهرجان الشعر بدمشق 1962 م ، وعتابه لأبناء العروبة على جفائهم يقول :[2]

ويا دمشق ... هل ابتلت جوانحنا بعد التنائي الذي قد كان أضنانــا

يا مسعدينا بدمع فــــيتنــــــا ومسعفينا بعطف فـــــي بلايانــا

دروا العواطف فالرشاش يجهلها و(سجدة السهو)لا تحيي ضحايانا

ويقول ابن زيدون : [3]

بنتم وبنا وما ابتلــت جوانحنــــا شوقا إليكم ولا جفــت مآقيــــنا

فموقف العتاب وارد عند كليهما ، إذ لا فرق بين معاتبة ابن زيدون لولادة بنت المستكفل ، ومعاتبة مفدي للأمة العربية ، فالحب يكبر في زمن التوترات والمحن ليتعدى الحواجز الفردية إلى جموع العامة .

كما تجدر الإشارة إلى أن الحنين إلى مرابع الطفولة من إحدى الانجازات المهمة في سجنيات مفدي والتي نستشفها من قصيدة (أفي السماوات عرش أنت تنشده) ، والتي يقول فيها [4] :

فكم لهونا نشاوى في مراتعها نغزو الظباء التي لم تأل تغزونــا

وكم صبونا بوادها نطارحــه صرف الغرام ، فيندى من تصابينا

وكم أقمنا سهارى في محاربها نتلو التســابيح يشــدوهــا مغــنينا

وإذ تحمل هذه الأبيات في طياتها حنينا طاغيا إلى أيام الصبا ، فما هذا إلا دليل ينبئ عن نفس أضناها السجن ، فلم تطق صبرا على ذلك ، ولا بأس فهي نفس مفدي حبيب وطنه الذي يتمزق أسى ويذوب شوقا إليه ، عندما يتراءى له طيف تلك الأماكن التي نشأ بين أحضانها

1 ـ ديوان ابن زيدون ، ص 9.
2 ـ اللهب المقدس ، ص 287
3 ـ ديوان ابن زيدون ، ص 10.
4 ـ اللهب المقدس ، ص 220.

حالما بالعودة إليها ، وهو شعور يكوي الشاعر بلظى البعد والفراق عن الأهل والوطن ، وهذا ما جعله يكتب هذه القصيدة ، التي عبر فيها عن حنينه إلى مرابع الطفولة وإلى الخلان ، وفي ذلك تناص مع قصيدة لابن العقون معتمدا على لغة الأقدمين وأساليبهم ، يقول :[1]

الأهل من الواد الحزين لنا قرب وهل في دياجي البين عن قريتي قرب
مرابع لهوي في صبايا عشقها وديار أحباب فؤادي بهم صب
بها رفرفت نحو المعالي مطامحي وفيها لسابق الهوى خفق القلب
ففي جنبات الحي مهد أحبة تملت بهم عيني فضمتهم الشهب

كما بلغ حب الشاعر القوي حنينه إلى بيئته الصحراء ، متغنيا بجمالها ، وبهائها ، وهو حبيس سجن البرواقية يقول :[2]

وفي صحرائنا تبر وتمر كلا الذهبين راق بها وطاب
وهزت مريم العذراء نخيلا فأسقطت الفلوذج والرضايا
عراجن كالمجرة مشرقات عسالجها انسكب نبها انسكابا
يدغدغ تحتها الغنام نابا فينطق من فم الغنم الربابـــا
يدلي في الغدير الحلو ساقا وبالكفين يغترف الشرابـــا
ويستلقي بحافته يناجي إله العرش يسأله متابـــــا

إذ تنم هذه الأبيات عن الولع الشديد الذي يتملك مفدي إلى مسقط رأسه ، واصفا المناطق المختلفة التي كان يحيا فيها ، بأسلوب يميل إلى الفخر والاعتزاز ، فهي من ناحية أخرى استلهام من القرآن الكريم لقوله تعالى : " وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا "[3]

فشاعرنا قد تمثل هذه الصورة دون أن يصوغها بما يلائم موقفه ، لأن الصورة في الآية الكريمة توحي بالأمن والاطمئنان والبركة للسيدة مريم العذراء ، ولكنها ظلت عنده مجرد إعجاب بالنص القرآني ، اقتبسه ليدلل به على حنينه إلى وطنه دون أن يكون للآية أي أثر في توجيه الصورة التي جاء بها .

1 ـ عبد الرحمان ابن العقون ، من وراء القطبان ، الجزائر ، 1969 م ،ط 2 ، ص 75.
2- اللهب المقدس ، ص 37.
3-سورة مريم ، الآية(25)

خـــــاتمة

خاتمة :

لقد تجلت الغربة والحنين على نحو وافر عند مفدي زكرياء ، وبلغت مدى بعيدا في قصائد بعينها ،تركت تيمة الغربة والحنين تطبع شعره في شيء من الرقة والإحساس بقيمة الحرية المسلوبة ،والبعد عن الأهل رغم قربه منهم .

تأسيسا على ما سبق وفي ضوء الدراسة السابقة ، يمكننا أن نخلص إلى جملة من النتائج التي ترتبت عن هذا البحث الذي عني بموضوعي الغربة والحنين في شعر مفدي زكرياء .

أول ما تطالعنا الغربة، وتتجلى في كونها غربة سياسية ـ وهي على هذا النحو غربة جماعية ـ نتجت عن تنكر الهيئات الدولية للقضية الجزائرية إبان الاحتلال، بالإضافة إلى غربة اجتماعية أفرزها تفاوت قضى بأولية المحتل على المواطن الأصلي.

أن الغربة تجلت على نحو لا يحمل أي أبعاد فلسفية أو وجودية مغرقة في العدمية أو نازعة إلى المطلق ، إنما هي غربة نفسية ناتجة عن مكابدة آلام وعذابات السجن ، فضلا من كونها إحساس بالتوحد رغم كون الشاعر يعيش في وطنه غير أنه محدود عن أن يتحرر من أقبية السجن الذي يصنع غربته و كذا حنيته إلى وطن هو موجود فيه .

أما الحنين فقد ورد في المتن الشعري لمفدي زكريا على أنحاء متعددة ، ارتبط بالغربة بشكل متضافر حيث تبعث الغربة بشكل آلي على الحنين ، فيما انصرف في بعض منه إلى حنين آخر لم تصحبه الغربة ، حيث كان حنينا إلى أيام الصبا و مرابع الطفولة و مسقط الرأس أو إلى أيام خوال قضاها الشاعر في هذا البلد أو ذالك .

لقد كان تأثير الغربة و الحنين ماثلاً في ثنايا شعر مفدي زكريا ، حيث أثر أيما تأثير على مفردات القصيد و صبغه بصبغة رومانسية صرف تركت الشاعر يفر إلى الطبيعة ينشد الأنس الذي يطرد به وحشة الغربة و يعبر بطريقته على آلام التوحد من خلال لغة كانت تكشف في مجملها عند روح تواقة للتحرر .

قائمة المصادر و المراجع

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

أولا المصادر:

1ــ ديوان ابن زيدون تحقيق كرم البستاني ، دار بيروت للطباعة والنشر 1979م .
2ــ ديوان أبو تمام . تحقيق الخطيب التبريزي .156 -158 ط دار الكتاب العربي ، بيروت .

3ــ ديوان أبي فراس ، تحقيق ابن خلويه ، دار بيروت للطباعة والنشر ، 1979 م .

4ــ الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر ، كتاب الحيوان ، الجزء الأول شرح و تحقيق يحي الشامي ، منشورات مكتبة الهلال ، بيروت ، ط 3 سنة 1990م .
5ــ الزمخشري ، أساس البلاغة ، الجزء 2 ، دار الكتب المصرية ، القاهرة .
6ــ ديوان امرؤ القيس ، دار صادر بيروت ــ لبنان ــ ، 2007م .
7ــ ديوان عبد المحسن الكاظمي ، تحقيق حكمة الجابري ، الأعمال الشعرية الكاملة دار الحكمة لندن 2002 م ، ط 1.

8ــ ديوان العرجي ، ابن جني ، تحقيق خضر الطائي ورشيد العبيدي ،الشركة الوطنية للطباعة والنشر ،بغدا د،1956م ، ط1.
9ــ ديوان المتنبي ، شرح عبد الرحمان البرقوقي ، الجزء 3 ، دار الكتاب العربي ، بيروت .
10- مفدي زكريا ، شاعر الثورة الجزائرية،اللهب المقدس،موفم للنشر والتوزيع- الجزائر 2000م، ط 4 .

11ــ مفدي زكرياء ، اللهب المقدس ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ، 1983 م ، ط 1.
12ــ أبو بكر بن الجن بن دريد الأزري ، جمهرة اللغة العربية ، الجزء1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، 2005 م ، ط 1.

13ــ أبو الفرج الأصفهاني ، أدب الغرباء ، تحقيق دار صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديدة ، بيروت 1972.
14ــ الفيروز أبادى ، قاموس المحيط . ج4 . الهيئة المصرية العامة للكتاب 1980 م.
15ــ ابن منظور الإفريقي ، خالد رشيد القاضي، لسان العرب ، دار صبح ايديسوفت .

ثانيا : المراجع

1ــ أحمد حمدي ،تاريخ الصحافة العربية ،دار هوما ،الجزائر 2003م .

2ــ أحمد زكي العشماوي ، الأدب وقيم الحياة المعاصرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط 2.
3ــ أحمد مختار البزرة ، الأسر والسجن في شعر العرب ، مؤسسة علوم القرآن ، دمشق 1985م ، ط 1 .
4ــ حسن محمد حسن حماد ، الاغتراب عند إريك فروم ، المؤسسة الجامعية لدراسات و النشر و التوزيع.بيروت ، ط1 1415 هــ .1995 م .
5ــ حواس بري ، شعر مفدي زكرياء، دراسة وتقويم ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1994م .

6ــ جبران مسعود ، معجم الرائد ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط3 2005.
7ــ ريتشارد شاخت ، الاغتراب ، ترجمة كامل يوسف حسب المؤسسة العربية للدراسات ، بيروت 1980 ، ط1 .
8ــ سليمة كبير ، مفدي زكرياء شاعر الثورة الجزائرية ، المكتبة الخضراء للطباعة والنشر للتوزيع، الجزائر.

9ــ عبد الرحمان ابن العقون ، من وراء القطبان ، الجزائر ، 1969 م ،ط 2.

10ــ عبد اللطيف محمد خليفة / مقياس الاغتراب ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة، 2006 م .
11ــ عبد اللطيف محمد خليفة ، دراسات في سيكولوجية الاغتراب ، دار الغريب ، القاهرة 2003م.

12ــ عبد المالك مرتاض، معجم الشعراء الجزائريين في القرن العشرين،دار هوما للطباعة والنشر والتوزيع،الجزائر 2007م .

13ــ علي الطنطاوي ، بغداد ن مشاهدات و ذكريات ، ط2 ، دار المنارة جدة 1990م .

14ــ عمر بن قتيبة ، في الأدب الجزائري الحديث .

15ــ عمر بوقرورة، الغربة و الحنين في الشعر الجزائري الحديث 1945-1962 ، منشورات جامعية باتنة .
16ــ ماركيوز (هربرت) ، العقل و الثورة ، هيجل و نشأة النظرية الاجتماعية ، ترجمة د فؤاد زكرياء ، الهيئة المصرية العامة للتأليف و النشر 1970 .

17ــ محمد الصادق عفيفي ، النقد التطبيقي والموازنات ،مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1978م .
18ــ محمد الهادي السنوسي ، شعراء الجزائر في العصر الحاضر ، الشركة التونسية للنشر 1926م .

19ــ محمد بوزواوي ، معجم الأدباء والعلماء المعاصرين من 1798م إلى 2009م ، الدار الوطنية للكتاب .

20ــ محمد علي بيوض ، الأحاديث الصحيحة ، جمع و إعداد الشيخ زكريا عميرات ، دار الكتب العلمية ، ط/2 ، 2002 م.
21ــ محمد ناصر ، شعر الثورة من جانبه الفني ، الثقافة ، الجزائر ، مارس 1985 م.

22ــ محمد ناصر ، مفدي زكريا شاعر النضال والثورة ، نشر جمعية التراث ، غرداية الجزائر 1989 م ،ط 2.

23ــ مصطفى حسيب ، المعجم الفلسفي ، دار أسامة للنشر و التوزيع ، ط 1 ، 2009 م .

24ــ المنجد في اللغة العربية ، دار المشرق بيروت ط 2 ، 2001 م .

25ــ مقران فصيح،البناء اللغوي شعر السجون عند مفدي زكريا وأحمد الصافي النجفي ،مؤسسة بونة للبحث والدراسات ،الجزائر 2008،ط1

26ــ ناصر الحاني ، المصطلح في الأدب الغربي ، منشورات دار المكتبة العصرية ، صيدا . بيروت

27ــ يحي الجبوري ، الحنين والغربة في الشعر العربي ، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع ،جامعة إربد الأهلية الأردن.

28ــ يحي الجبوري ، الغربة والحنين في الشعر العربي ، الحنين إلى الأوطان دار مجد لاوي عمان ، 2007م .

29ــ يحيى الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكريا،دار البعث ،قسنطينة –الجزائر- 1987م، ط1.

ثالثا : المجلات

1ــ حسن فتح الباب ، مفدي زكرياء ، شاعر العروبة والإسلام في الجزائر، مجلس الأدب الإسلامي، العدد 18، المجلد 5 .

2ــ نبيل راغب ، مفهوم الاغتراب في الأدب ، الفيصل العدد96.

فهرس الموضوعـــات

فهرس الموضوعـــــــــــات

مقدمـــــــــة

مقدمة.....أ

مدخـــــــــل

الغربة والحنين في الدراسات النفسية والأدبية

مدخل 1

الفصـــــــل الأول

مفهوم الغربة والحنين

أولا: مفهوم الغربة والاغتراب 4

لغة 4
2-اصطلاحا.....7
أــ الغربة الدينية 7
ب/ الغربة (عند الغرب) 8
ج/ الاغتراب عند العرب 11
ثانيا: مفهوم الحنين 12

1 لغة.....12
2 اصطلاحا.....13

الفصـــــل الثاني

مفدي زكرياء حياته وشعره

أولا:حياة وشخصية مفدي زكرياء 19

1ــ حياة مفدي زكرياء 19

2- شخصية مفــدي زكرياء 21

أ/ مفــدي زكرياء المناضل.....21

ب/ مفــدي زكرياء الصحــفي 22

ج/ مفــدي زكرياء الأديــب 24

د/مفــدي زكرياء الشاعر 25

ثانيا:العوامل المؤثرة في تكوينه وشعره 26

1ــ العوامل المؤثرة في تكوينه 26

2ــ شعر مفدي زكرياء.....29

الفصـــــل الثالث

ثنائية الغربة والحنين

أولا: تجليات الغربة عند مفدي زكرياء 39

ثانيا: تجليات الحنين عند مفدي زكرياء 43

خاتمـــــــــــة

خاتمة 50

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع 51

فهرس الموضوعات